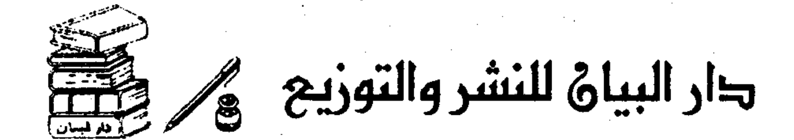
دفاع عن التاريخ
الإسلامى

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م



٢٧ ش ابن قتيبة - حى الزهور- مدينة نصر/ القاهرة - ت : ٢٦١٣٨٩٨
٧ عمارات الجبل الأخضر أمام نادى السكة الحديد - مدينة نصر/ القاهرة
ت وفاكس : ٤٨٢٢٤٨٧

الأستاذ الدكتوريحيى هاشم حسن فرغل
عميد كلية أصول الدين بالأزهر سابقا
وأستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة
الإمارات

دفاع
عن التاريــــــخ الإسلامى
أو
التاريخ الإسلامي بين جهل
أبنائه وكيد خصومه

يقول الله تعالى :

﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾

سورة هود الآية : ١١٣

مناجاة إلى رسول الله ﷺ :

يا سيـــدي عليك أفـــضـل الصلاة والسلام
من أمة مضاعة تقذفها حضارة الخراب والظلام
يا سيـــدي : منذ ردمنا البـــحـر بالســدود
وانتـــصبت مــا بيننا وبينك الحـدود مــتـنـا
وداســـت فــوقـنـا مــاشــيـة اليــهــود

من شعر محمد الفيتوري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

علينا أن ندرك أننا في معركتنا الثقافية مع الغرب الذي أعلن علينا « صراع الحضارات » أمام معركة صليبية جديدة أشد ضراوة وأقوى تخطيطاً من جميع الحملات الصليبية السابقة ، ذلك لأن الحملة الجديدة قد استفادت من أخطاء الحملات السابقة ، فأخذت تقدم لنفسها هذه الحرب الثقافية ، والتي كان وما يزال عساكرها من المبشرين والمستشرقين والمستغربين ، والتي وصلت بالفعل إلى قدر من استئصالنا ثقافياً ، من شأنه أن يؤدي إلى نتائج لم تحققها الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي ، وهي نتائج لا تقل خطراً عن عملية الاستئصال التي نجحت تماماً من قبل في المغرب ، في الأندلس.

وإنه لمن الغفلة التاريخية التي تصيب المسلم المعاصر أن يتوهم أن ما أعلنه الغرب أخيراً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي من أن عدوه هو الإسلام أن هذا توجه جديد ، ذلك أن هذا التوجُه قد صاحب الاستعمار في

أولى خطواته نحونا ، وإنما الجديد هو وقاحته وخيانته لسياسة التجميل التاريخي لوجهه القبيح ، ذلك التجميل الذي كان وما يزال يمارسه أصدقاؤه وعملاؤه في المنطقة.

إن المعركة الثقافية تدرك أهمية التاريخ في صنع شخصية الأمة ، والمحافظة على ضميرها وذاتها وكينونتها . نحن نذكر كيف تعلمنا ونحن صغار وفقاً لمنهج تربوي تقليدي نابع من إحساس أصيل بالتاريخ ... أقول : تعلمنا وفقاً لهذا المنهج نسب رسول الله ﷺ : نحفظه ونتغنى به - بدءاً من أبيه عبد الله إلى إسماعيل عليه السلام.

لم يكن هذا عبثاً أو نافلة ، كما لم يكن نافلة أن كان رسول الله ﷺ يذكر نسبه ويؤكد عليه إذ يقول : «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم وخيركم أنا » ، وإذ كان يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل،واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » رواه مسلم . وروى الإمام أحمد في

« مسنده » بسنده عن العباس رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ : أنه صعد المنبر فقال : « من أنا ؟ » ، قالوا : أنت رسول الله ، قال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق ، فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلني في خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً ، وخيركم نفساً » . ولا شك أن الرسول ﷺ كان راضياً أشد الرضا بإجابتهم الأولى: أنت رسول الله ، ولا شك أنه لم يكن به شيء من خيلاء الفخر ، ولكنه أراد ألا يحول ذلك بينه ومعه المسلمون جميعاً وبين استحضار التاريخ ، والتذكير به .

هذا بالإضافة لما ورد بكثرة في القرآن الكريم عن أخبار الأمم السابقة ، والأنبياء السابقين .

لقد صار العلم بالتاريخ - هذه الإشارات - فرض كفاية على الأمة الإسلامية .

وأصبح فرض عين على المشتغلين بالثقافة وتوجيه الأمة.

بل إن الحد الأدنى منه يكون فرض عين في المنهج التربوي للناشئة ، ذلك لأن إسقاط تاريخ الأمة يساوي فقدان ذاكرة الفرد .

ولقد أصبح ما يسمى «الذاكرة الجماعية » - كما يقول الدكتور إدوارد سعيد - حقلاً دراسياً هاماً يحظى باهتمام كبير من المؤرخين ، وهناك اتفاق لديهم على أن الذاكرة الجماعية ليست شيئاً هامداً أو سلبياً ، وإنما هو حقل يتم فيه اختيار وإعادة صياغة الأحداث القديمة وإعطاؤها معنى جديداً .

ولقد عني الصهاينة بذلك عناية كبرى : وتظهر المؤرخة الأمريكية الصهيونية « ييل زيروفابل » في كتابها « الجذور المستعادة : الذاكرة الجماعية وتشكيل التقليد الوطني الإسرائيلي » الصادر عام (١٩٩٥) ، أن قصة الانتحار الجماعي لليهود في روما في قلعة « مسادا » لم تكن معروفة لغالبية اليهود قبل أواخر القرن الماضي ، وتقول : إن شهرة القصة بدأت عند ترجمة كتاب «حروب اليهود » للمؤرخ اليهودي القديم «جوزيف » إلى العبرية في عام (١٨٦٢) ، وأعيد تركيبها لتصبح

«نقطة تحول رئيسية في التاريخ اليهودي ، محجًا لليهود في العصر الحالي ، وموقعاً أثرياً شهيراً ، ورمزاً سياسياً معاصراً » (١) .

ومن هذا المنطلق : ألا وهو إدراك أهمية التاريخ في سياق الغزو الفكري للعالم الإسلامي أخذت تنهال المعاول على تاريخنا بقسوة وشماتة ، بهدف إفراغ المسلم من ماضيه ، واقتلاعه من جذوره ليصبح بعد ذلك مطواعاً لكل تيار جديد ، وليصبح خلعه من دينه بعد ذلك أمراً ميسوراً .

إنها معركة خاضت مثيلاتها - كما يقول إدوارد سعيد - كل الشعوب التي تعرضت للاستعمار ، والتي سيطرت عليها قوى خارجية احتلت الأرض أولاً ، ثم أعادت كتابة التاريخ لكي تكتسب شرعية وجودها في تلك الأرض ، وشعرت كل دولة استقلت بعد تفكيك الإمبراطوريات الحديثة في أعقاب الحرب العالمية الثانية بضرورة استعادة تاريخها بأقصى ما يمكن من البعد عن

---

(١) من حديث لإدوارد سعيد بعنوان «جناية اللنزعة القومية على التاريخ» بجريدة الخليج (٢٤/ ٨/ ١٩٩٦).

الأحكام المسبقة التي أدخلها المؤرخون الأجانب ، ومن لف لفهم .

وللمستشرقين دور في هذه العملية الموجهة ضد التاريخ الإسلامي يقول إدوارد سعيد : « إن المستشرقين الغربيين المحدثين يعيدون كتابة تاريخ الإسلام كقصة لا تنتهي من الحقد واللاعقلانية حتى يبدو الوجه العربي والمسلم لفلسطين وكأنه جزء ضائع أو حتى غير موجود».

ومن الواضح لدينا أن الأمر لم يقتصر على المؤرخين الغربيين ، وإنما شاركهم في ذلك أتباعهم من أبناء البلد ، كما شاركت بصفة جوهرية مناهج دور التربية في المدارس والمعاهد والجامعات . وإلا فمن أين جاء الجهل المطبق بين أجيال هذه الدور بتاريخنا مع الصليبيين والصهاينة والاستعمار ، وتاريخ فلسطين ، كما سنبينه بعد .

ولقد اتخذ هذا الغزو في مجال التاريخ : ثلاثة اتجاهات ، اتجاهاً إلى المحو ، حيث يكون ذلك ممكناً ، في مجال ما قد يظن أنه دائرة صغيرة من دوائر هذا التاريخ

يمكن الإجهاز عليها .

واتجاهاً إلى تشويه ما لا يمكن محوه من التيار العريض لهذا التاريخ .

واتجاهاً لتجميل الصورة - الشائهة أصلاً - لتاريخ الأعداء .

وفي جميع الأحوال كان الهدف هو إخراج الإسلام من الساحة .

فبمحو التاريخ الإسلامي أو تشويهه يتم إخراج الإسلام من الساحة بدعوى أنه لم يكن له دور إيجابي ، بتجميل تاريخ أعداء الإسلام يتم إخراج الإسلام من الساحة بدعوى أنه لم يكن لتحركهم تجاهنا أسباب دينية.

وأخيراً ، فإن علينا - وبخاصة في عصر جلد الذات الذي نعيشه اليوم لدوافع بعضها خبيث هدام - أن نقبل على دراسة تاريخنا بحب ومودة ، وأن نكون واثقين من قدرتنا على أن نصنع من المجد مثلما صنع آباؤنا ، وفي هذا الأمل الواثق يقول رسول الله- ﷺ -:

«مثل أمتي مثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » رواه الترمذي والحاكم والطبراني في « الأوسط » ، والبزار بإسناد حسن .

* * *

الفصل الأول

المحو

المحـــو

أمـا اتجاه المحـو فنجده في الجـهل المطبق للمـسلم المعاصـر بحضارته وتاريخـه عمومـاً وبتاريخ فلسطين ، وتاريخ القدس بخاصة .

إن المسلم المعـاصـر لو سـئل عن العام الـهجـري الذي يعيـش فيه لكانت النتـيجـة مؤسفـة ، وكمـا يقول الكاتب الصحفي سامح كريم : « في رمضان سأل المذيع عـدداً من الناس عن عـامنا الهـجـري ، فأجـمـعت كل الإجابات على أخطاء مـؤسفة مـحصلتها أن الجـميع لا يعرفون في أي عام هجري نكون ، وليست هذه الأخطاء مقصورة على معرفـتنا بالشهور الهجرية والأعوام ، وإنما تمتـد إلى تاريخنا وثقـافـتنا وتراثنا وحـضـارتنا العـربيـة الإسلامية ، فمن الصعب أن يعرف البعض منا الأحداث التاريخية الكبرى ، وأصعب أن يعرفوا تراث أجدادهم ، وأشد صعوبة أن يعرفوا معطيات حضارتهم العربية » .

ومن هذه المعـطيـات الحـضــارية التي لم يـكتف البعض بجهلها ، ولكن تم دفع بعضـهم إلى احتقارها ما كشف عنـه الأستاذ مـحمود مـحمـد شاكر في مـقدمـته

لكتاب «أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني من كتب التراث (عن نظرة الشيخ محمد عبده إلى ماضينا . وكيف أثرت هذه النظرة في تلاميذه ومريديه لتحري أقلامهم بما يؤثر في حياتنا المعاصرة ، وتكون النتيجة تفريغ الأمة من تاريخها .. في البداية حيث حقق الشيخ رشيد رضا كتاب « أسرار البلاغة » للجرجاني ، واستهله بمقدمة استهانت بعدد من علماء العرب الأقدمين إلى درجة أنه سمى أعمال أحدهم بأنها «الرسوم الميتة التي سماها الجهل علماً » ليجيء الشيخ البرقوقي من بعده ويكتب مستهيناً بعلماء العرب الأقدمين ، ثم تبين فيما بعد للأستاذ محمود شاكر أن ما قاله الشيخان « رشيد رضا والبرقوقي » ترديد لما كان يقوله الشيخ محمد عبده ، في دروسه ومجالسه في ذم الكتب التي كان طلبة العلم في الأزهر يدرسونها ، فتلقفوا عنه هذا الطعن دون فحص أو نظر) .

ويواصل الشيخ محمود محمد شاكر قائلاً :

« ولم يقتصر ذم الشيخ محمد عبده على كتب البلاغة وحدها ، بل تناول بالطعن الجارح كل الكتب التي كانت

تدرس في الأزهر على اختلاف أنواعها من بلاغة وفقه ونحو .. وذاع هذا الطعن وتناقلته ألسنة المحيطين به من صغار طلبة الأزهر وغيرهم من الطوائف ، فكان هذا أول صدع في تراث الأمة العربية الإسلامية ، وأول إسقاط لتاريخ طويل من التأليف إسقاطاً كاملاً ، يتداوله الشباب بألسنتهم مستقراً في نفوسهم ، وهم في نضارة الشباب لا يطيقون التمييز بين الخطأ والصواب ، وليس عندهم من العلم ما يعينهم على الفصل في المعركة التي دارت بين شيوخ الأزهر والشيخ محمد عبده ، وليس في أيديهم سوى ما قاله الشيخ في التجريح والطعن الذي صدهم صداً كاملاً عن هذه الكتب وأورثهم الاستهانة بها) (١) .

وتكون النتيجة تفريغ الدراسة بالأزهر على النحو الذي أصبحنا نشكو منه أخيراً ، وتتضاعف النتائج عند تلاميذ الشيخ من العلمانيين ، ومن يأتي من تلاميذهم ، ثم تكون النتيجة أيضاً حصاد أطفال الفتوى الذين يردون ما قاله أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل قائلين :

---

(١) الأهرام (٢٢/ ٥/ ١٩٩٢م)

نحن رجال وهم رجال ، وهات يا فتوى .. !!

فتح المسلمين لفرنسا :

يعرف الكثيرون منا معرفة غائمة شيئاً عن الإسلام في الأندلس ، لكن هل يعرف المسلم المعاصر شيئاً عن فتح الإسلام لنصف فرنسا الجنوبي في القرن الثاني الهجري بهدف تنويرها إسلامياً ، ثم انحسارهم عنها لظروف من الميل لعرض هذه الحياة الدنيا؟

لقد سبق إلى فتح فرنسا السمح بن مالك الخولاني الذي أقامه عمر بن عبد العزيز والياً على الأندلس (١٠٠ هـ / ٧١٩م) ، وكان من خيرة ولاة الأندلس فضلاً وصلاحاً وقدرة ، كما كان قائداً عسكرياً ممتازاً ، حيث قام بحملة شاملة على فرنسا اخترقت جبال ألبرت من الشرق – وهي تفصل جبال البرانس التي تمتد جنوب غرب فرنسا وتفصل بينها وبين الأندلس ، وتعد حاجزاً طبيعياً بين البلدين ، وسيطر على عدد من القواعد هناك ، واستولى على سبتمانيا ، وأقام حكومة إسلامية جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وفقاً للرسالة الحضارية التي جاء بها المسلمون إلى الأندلس آنذاك في

هذا الوقت المبكر ، واتخذ من « أربونة » قاعدة للجهاد وراء ألبرت ، ثم استشهد في معركته مع قوى الظلام ، عند تولوز ، في يوم عرفة من سنة (١٠٢ هـ/ ٧٢١م) ، وفقدت فرنسا بذلك من ثم أول فرصة للتنوير الإسلامي عرضت لها . ثم عرضت فرصة التنوير الإسلامي مرة أخرى ، إذ دخلها عنبسة بن سحيم الكلبي والي الأندلس الذي كان قد عين عليها عام (١٠٣هـ)، حيث عبر بجيوشه جبال ألبرت وتمكن من بسط سلطان التنوير الإسلامي في شرق جنوب فرنسا ، وفي أثناء عودته داهمته جموع الفرنجة - قوى الظلام آنذاك - فأصيب عنبسة في المعركة ، ثم توفي عام (١٠٧ هـ/ ٧٢٥م) ، وفقدت فرنسا فرصة أخرى للتنوير الإسلامي .

ثم جاء عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، وكان من كبار رجالات الأندلس عدلاً وصلاحاً وتنويراً وقدرة وكفاءة ، عين والياً على الأندلس مرتين : الأولى في عام (١٠٢ هـ/ ٧٢١م) لمدة عام ، والثانية من قبل والي أفريقيا مؤيداً من الخليفة هشام بن عبد الملك في

صفر عام (١١٢ هـ) ، حيث نظم شئون البلاد في الحكم والإدارة ، وعين أصحاب الكفاءة في المناصب المختلفة ، وقمع الظلم ، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم ، وفرض ضرائب عادلة ، وعني بتنظيم الجيش وإصلاحه ، وأنشأ فرقاً من العرب والبربر ، وحصن القواعد والثغور ، وجمع أعظم جيش سيره المسلمون لإخراج فرنسا من الظلمات إلى النور . وفي أوائل عام (١١٤ هـ/ ٧٣٢م) سار الغافقي بجيوشه نحو الشمال وعبر جبال ألبرت - أو البرانس - من طريق بنبلونة ، ودخل فرنسا حيث فتح نصف فرنسا الجنوبي كله ، من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر ، بعد معارك ناجحة ضد قوى التخلف والظلام ، وواصل زحفه حتى أشرف بجيشه على نهر اللوار ، وهناك احتشد له «شارل مارتل» بجيش ضخم من الفرنج والمرتزقة نصف العراة ، الذين يتشحون بجلود الذئاب ، وتنسدل شعورهم الجعدة على أكتافهم العارية ، هناك استولى جيش التنوير الإسلامي على بواتييه ، وتورور ، وعبر جيش الظلام الفرنجي نهر اللوار ، وعسكر غربي الجيش الإسلامي ، ثم عزم

الغافقي على لقاء أعداء التنوير على الرغم من أن بعض قبائل البربر في جيشه كانت تتوق للانسحاب ، وأن عدد جنوده كان قد قل ، بسبب تخلف حاميات كثيرة في المدن والقرى المفتوحة ، ودامت المعركة تسعة أيام ، دون أن يحقق الفريقان نصراً حاسماً ، وفي اليوم العاشر أبدى كلا الطرفين غاية الجلد ، وظهر الإعياء على الفرنج الظلاميين ، وبدت علامات الانتصار لقوى المسلمين - لكن حدث أن افتتح الفرنج ثغرة في غنائم المسلمين ، فظهرت على أفقهم غمامة من غمامات الظلام التي حذر الرسول ﷺ أمثالهم منها في غزوة أُحُد من قبل ، فارتدت قوات منهم إلى الوراء واختلت صفوف المسلمين ، وبينما كان الغافقي يحاول إعادة النظام إلى جيشه أصابه سهم فأرداه شهيداً ، فعم الاضطراب بين المسلمين ، وكثر القتل فيهم ، واشتد الفرنج عليهم ، لكنهم صبروا حتى جن الليل وافترق الجيشان دون فصل في المعركة ، وذلك في أوائل رمضان (١١٤ هـ ، ٢١ أكتوبر ٧٣٢م) ، ثم انسحب المسلمون نحو مراكزهم في سبتمانيا ، وفي فجر اليوم التالي تقدم

« شارل مارتل » بحذر ، فوجد معسكرات المسلمين خالية إلا من الجرحى الذين لم يتمكنوا من مرافقة جيشهم ، فأخذهم أسرى ثم ذبحوهم بنذالة واضحة ، وخشي « شارل مارتل » من أن يتتبع المسلمين مظنة الخديعة منهم ، فاكتفى بانسحابهم ولم يتعقبهم ، كما حدث من قبل من قوى الظلام الجاهلي في أُحُد تماماً ، وآثر العودة بجيشه إلى الشمال ، بهذا أخفقت آخر محاولة بذلها المسلمون لتنوير العالم الغربي ، وفقدت فرنسا بالذات فرصتها الحاضرة المبكرة الكبرى للخروج من عصور الظلام ، كما خرجت أسبانيا ، ودخلت في عصر البيات الظلامي لمدة عشرة قرون ، منذ محاولة الغافقي التي أهديت إليها ففشلت في اغتنامها إلى أن جاء عصر النهضة الأوروبية .

ماذا تعرف أجيالنا المعاصرة من ذلك ؟

❋ ❋ ❋

حضارة المسلمين في بلغراد :

ماذا يعرف المسلم المعاصر عن بلغراد المدينة الإسلامية عاصمة جمهورية الصرب حالياً (يوغوسلافيا سابقاً) التي تشوي على نار هادئة جثث المسلمين في البوسنة والهرسك وكوسوفو وما سوف يأتي ؟

فتح العثمانيون بلغراد في (٢٦ رمضان ٩٢٧ هـ الموافق ٢٩ / ٨/ ١٥٢١م) ، ولم تكن آنذاك غير قلعة ضخمة في قسمها المرتفع ، وعدة أحياء سكنية في القسم المنخفض ، بحيث كان من الصعب تقدير عدد سكانها بأكثر من عدة آلاف ، وبعد قرن واحد من الفتح الإسلامي كانت قد تطورت تطوراً مثيراً ، حيث أصبحت في بداية القرن السابع عشر - كما يقول المؤرخ المعاصر « د . بوبو فيتش » - تشبه دمشق أو غيرها من مدن الشرق ، بسكانها ومنشآتها وثقافتها وتقاليدها ، حتى إنها اشتهرت لدى الرحالين الأوروبيين باسم بوابة « الشرق » ، وفي ظل الحكم العثماني كما يذكر الرحالة الإنكليزي « براون » أصبحت بلغراد جزءاً من عالم

يختلف تماماً عن الغرب ، جزءاً من ذلك العالم الآخر الذي يمتد إلى الصين وأعماق آسيا .

ويقول الدكتور محمد الأرناؤط : إذا استثنينا استامبول ، وبالتحديد القسم الأوروبي منها كانت بلغراد في تلك الفترة أكبر وأهم مركز للحضارة الإسلامية في أوروبا الوسطى ، وكانت بالتالي نموذجاً للمدينة الإسلامية بالمعنى الحضاري .

وبالإضافة إلى ما كانت تقوم به بلغراد من دور تجاري تبادلي مع مصر ودمشق وصيداً وبيروت في ظل الإسلام بلغ ذروته في القرن السابع عشر ، فقد كانت بوابة أيضاً لهذه التجارة مع المجر وبولونيا وتشكوسلوفاكيا والسويد والبندقية ، وكان قسم كبير من الأقمشة يصل من البلاد العربية لحاجات السكان في بلغراد الذين بغالبيتهم الإسلامية كانوا يعيشون ويتزيون على النمط الإسلامي ، حتى إن المسيحيين من سكان بلغراد أصبحوا مع الزمن يقلدون المسلمين في حياتهم ولباسهم .

ومع اتساع المدينة وتطور المجتمع نشأت فيها

حـرف كثيرة جـديدة لتلبـية الحـاجات الجـديدة لسكان المجـتمـع ورفاهيـتـهم ، وكـان ذلك كله يخـضـع للنظم والشريعة الإسلامـية ، وللدلالة على ذلك يكفي أن نشير هنا إلى أن الـعـالم منيـر يـري البلغـرادي المتـوفى عـام (١٦١٦) ألف لهـذا الـغـرض كـتـاباً بعـنوان « نصـاب الانتساب وأدب الاكتساب » يعرض فيه لموقف الشريعة من الاقـتـصـاد على ضـوء تجـربة ما كـان يسـمى نظام « الأصناف » في بلغراد : ويقصـد به أصناف الحرفيين من الدباغين والسراجين ... إلخ .

ومما ساعـد على تطور التجارة والحـرف في بلغراد المنشآت المختلفة التي كانت ترتبط بالطابع المميز للمدينة الشرقـية الإسلامـية ، والتي لم يكن لهـا مثيل في البلاد المجـاورة ، ومن أهم هذه المنشـآت كـانت استـراحـات القـوافل القـادمـة من الخـارج ، والتي اشـتـهـرت باسم «كارافـان ساراى » ، وكـانت على قسـمين : قسم منـهـا يتبع الأوقاف الإسـلامية ويقدم خدماته مـجاناً ، والقسم الآخر مقـابل خدمات رمزية . وإلى جـانب هذا كان في بلغـراد أيضاً « البزسـتان » ، وهو مـا كان يثير إعـجاب

الأوروبيين ، لكونه يجمع الأصناف الكثيرة من البضائع والخانات التي كانت تستخدم كاستراحة للمسافرين وكبيوت للتجارة . وتجدر الإشارة إلى أن بلغراد كمدينة إسلامية تميزت بما يسمى « العمارة » ، التي هي عبارة عن مطعم شعبي مجاني تابع للأوقاف، وفي هذه العمارة كان يمكن لأي إنسان أن يدخل ويأكل وجبة كاملة دون أن يدفع قرشاً واحداً . ومن المنشآت الاجتماعية في المدينة كانت « دور العزاب » وهي دور كبيرة مجانية مخصصة للشباب الحرفيين الذين كانوا يعيشون حياة العزوبية بانتظار الزواج والانتقال إلى بيوت خاصة بهم .

وكان المسلمون في بلغراد متمسكين بالدين ، ويتبعون المذهب الحنفي ، وقد أشاد الرحالة بنسائهم ووصفوهن بالعفة والتدين كأن الواحدة منهن « رابعة العدوية » !

ومن أهم المناسبات الإسلامية الاجتماعية التي كان يقام لها الاحتفال : المولد النبوي ، والعودة من حج ، وتشييد بيت ، والوفاء بنذر ، والشفاء من مرض ، وختن الأولاد .

وإذا كان من عادة العثمانيين حين يدخلون فاتحين إحدى المدن أن يحولوا إحدى الكنائس فيها إلى جامع ليقيموا به الصلاة فوراً رمزاً لانتصارهم ، فقد أدى ذلك إلى تشويه سلوكهم واتهامهم بأنهم قاموا فور دخولهم بهدم أو تحويل الكنائس إلى جوامع ، بينما الحقيقة أنه خلال الحكم العثماني زاد عدد الكنائس ، ووصل إلى ثمان في منتصف القرن السابع عشر ، وذلك في مقابل مائتين وسبعين جامعاً ومسجداً تقريباً ، تعكس تركيب السكان بين أغلبية مسلمة وأقلية مسيحية بلغ مجموعهم تقريباً مائة ألف نسمة ، وعلى كل حال فإن ما قام به العثمانيون من تحويل كنيستين إلى مسجدين يعتبر - كما يقول الدكتور محمد الأرناؤط - في قمة التسامح إذا ما قارناه بما حدث بعد ذلك لجوامع بلغراد خلال حرب الاسترداد .

وكان كل مسجد يشتمل على كتَّاب ، وفي هذه الكتاتيب كان الشيخ يعلم أطفال المسلمين اللغة العربية ليتمكنوا من قراءة القرآن الكريم ، وبالإضافة لهذه الكتاتيب كانت المدارس العامة العليا التي أنشئت لتوفير

ما تحتاج إليه الجوامع من كوادر دينية، وقد استمر عدد هذه المدارس حتى وصل في منتصف القرن السابع عشر إلى ثمان مدارس .

وفي إطار الجامع والمدرسة كانت المكتبة وما تشتمل عليه من مخطوطات للأساتذة والطلاب ، وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر كان في بلغراد بالتأكيد آلاف المخطوطات في مكتبات الجوامع والتكايا والمكتبات الخاصة .

وفي المدرسة العليا كان الطالب يتعمق في علوم اللغة العربية من النحو والصرف والعروض والبلاغة وعلوم الشريعة من الفقه والتفسير والحديث والعقائد ، وبالإضافة لذلك كان هناك ما يسمى « دار القراء » التي تتخصص في القرآن الكريم ، وكان بناء الواحدة منها يحتوي على عشرين قاعة للطلاب ، بالإضافة إلى قسم داخلي يتألف من أربع عشرة غرفة ، وكان لكل طالب غرفة ومصروف خاص ، وكانت هناك أيضاً دار الحديث، ووصل عددها إلى تسع دور ، وكان ينفق عليها من طرف الأوقاف .

ومع تطور بلغراد وتضخم عدد السكان فيها انتشرت أبرز الطرق الصوفية وفروعها المعروفة في العالم العربي والإسلامي من مثل البكتاشية، والرفاعية، والقادرية، والنقشبندية ... إلخ.

وتجدر الإشارة هنا إلى الشاعر حسين باشا البلغرادي الذي توجد له ترجمة وافية في « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر »، حيث يصفه المحبي بأنه « واحد الدهر على الإطلاق »، والذي عين قاضياً، ثم انتقل إلى القاهرة وقضى بها بقية حياته إلى أن توفي في شهر رجب (١٠٣٢ هـ/ ١٦١٤م)، وكما يقول بعض الدارسين لشعره: (كان شاعراً جيداً في ذلك الوقت)، وبالإضافة إلى الشعر برز في بلغراد عدد من العلماء كالمؤرخ ورجل الدولة فريدون بك، وشيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي، وعدد من كبار العلماء « لا يجاريهم أحد في الإمبراطورية العثمانية » (١).

وكان المسلمون الذين يشكلون أغلبية السكان ..

---

(١) كتاب « الإسلام في يوغوسلافيا من بلغراد إلى سيراييفو » للدكتور محمد الأرناؤط، نشر دار البشير بعمان - الأردن، الطبعة الأولى (ص ٢٣، ٣٤، ٣٧، ٤٩، ٥١، ٥٤، ٥٨، ٦٠، ٦٢).

من مناطق مختلفة ، وكان الأتراك يمثلون أقلية ، وفي مقابل هؤلاء كان السلاف الجنوبيون من البوسنة يمثلون العدد الأكثر من بين المسلمين ، ويأتي من بعدهم الألبانيون من حيث العدد ، ومن هذا يتضح أن أغلبية المسلمين في بلغراد كانوا من البلقان من البوسنيين والألبانيين ، ومع هذا فقد درجت العادة على وصف كل المسلمين في بلغراد بالأتراك لتبرير القضاء عليهم فيما جاء بعد ذلك من حرب الاسترداد .

بهذا كانت بلغراد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر مركزاً معتبراً للثقافة الإسلامية ، ونموذجاً للمدينة الإسلامية .

وقد جاءت حرب الاسترداد بعد سلسلة من الهزائم المتوالية التي حلت بالجيش العثماني بين أعوام (١٦٨٣ - ١٦٨٨م) ، حيث توجه في نهاية هذا العام جيش نمساوي يتألف من خمسين ألف جندي لحصار بلغراد ، وبعد شهر من الحصار تمكن الجيش النمساوي من دخول المدينة في (٦ أيلول) ، وقد أدى القصف النمساوي العنيف والمتواصل خلال شهر الحصار إلى

تدمير جزء كبير من القلعة والمدينة ، وقتل ونهب السكان الأبرياء ، ثم استردها العثمانيون في عام (١٦٩٠م) .

وفي صيف (١٧١٧) تقدم الجيش النمساوي نحو بلغراد ، وجرت في (١٦ آب) واحدة من أكبر المعارك في التاريخ الحديث ، ونتيجة لهزيمة العثمانيين سيطر النمساويون على بلغراد وشمال صربيا ، وهرب المسلمون منها ، ومن ثم تغير التركيب السكاني للمدينة تماماً ، وتخلصت الإدارة النمساوية من كل المنشآت الحضارية الإسلامية ، بما في ذلك المساجد التي هدم بعضها وحول الباقي منها إلى كنائس ، ولم يبق منها غير جامع واحد هو « جامع البيرق » إلى اليوم .

ثم عادت بلغراد إلى الحكم العثماني في الفترة من (١٧٤٠ - ١٧٨٨م) ، ثم في الفترة من (١٧٩١ - ١٨٠٦م) ، ثم في الفترة من (١٨١٣ - ١٨٦٢م) .

وبعد حوادث قاسية جرت للمسلمين في عام (١٨٦٢) أصبحت المدينة خالية من المسلمين بعد أن استمروا بها أكثر من ثلاثة قرون ، واستمرت عملية

الاسترداد الحضاري الكامل حتى تمت بذلك حلقة كاملة من حلقات الإبادة البشرية للمسلمين[1] .

فهل عـرفت أجيـالنا المعاصـرة شيـئاً عن ذلك ؟

ولِمَ ؟

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق (ص ٤٤ ، ٦٣ - ١٠٣) .

فلسطين عربية إسلامية :

يقول الدكتور إدوارد سعيد : ربما تكون المعركة الأكبر التي خضناها نحن الفلسطينيين كشعب دارت على حقنا في الوجود ، ومع ذلك الوجود حقنا في تملك واستعادة حقيقتنا التاريخية . ويقدم كتاب « اختراع إسرائيل القديمة : إسكات التاريخ الفلسطيني » للبروفسور الإسكتلندي « كيث وتلام » (١٩٩٦) بوضوح مذهل - كما يقول إدوارد سعيد - مدى تعمد وتواصل الهجوم الصهيوني على التاريخ الفلسطيني. ويقدم « وتلام » صورة بالغة الإثارة عن الطمس التدريجي لتاريخ فلسطين القديمة بتاريخ مخترع إلى حد كبير لإسرائيل القديمة ، وهي في حقيقتها كيان سياسي لم يلعب سوى دور صغير في فلسطين التاريخية .

وحسب « وتلام » فإن فلسطين القديمة كانت موطئاً لليبوسيين والكنعانيين وقدماء الفلسطينيين وغيرهم ، لكن بداية القرن الماضي شهدت إسكات هذا التاريخ وطرحه جانباً ، لكي يصبح تاريخ القبائل الإسرائيلية ، ومكن ذلك من إخراس التاريخ الفلسطيني المحلي .

ويذهب « دبليو أف ألبرايت » أحد أهم مؤرخي فلسطين القديمة في أوائل القرن الجاري إلى حد الموافقة على تدمير الحضارات الفلسطينية المحلية على يد « القوم المتفوقين » ، ويكتب : « يبدو في أحيان كثيرة لفيلسوف التاريخ من منظوره المحايد أن من الضروري لشعب من نوع أدنى بشكل ملحوظ (أي الفلسطينيين الكنعانيين) الزوال أمام شعب متفوق الإمكانات ، لأن هناك حداً لا بد للتمازج العرقي إذا تخطاه أن يتحول إلى كارثة » .

ويقول الدكتور إدوارد سعيد : « مهمتنا كعرب وكفلسطينيين أن نبذل جهداً أكبر في سيرتنا التاريخية ، وذلك ليس كترف فكري لا فائدة حقيقية فيه ، أو كشيء يمكن دوماً تأجيل البدء فيه ، لأننا في افتقارنا إلى تاريخ يأتي نتيجة البحث الجاهد والتأليف كقصة متماسكة أشبه بالأيتام الذين لا والد لهم أو مأوى »[1] .

ولننظر كيف يجهل أبناؤنا تاريخ فلسطين إلى الحد الذي لا يجدون في ثقافتهم اليوم ما يقاومون به الدعاية الإعلامية التي تكرر على مسامعهم ادعاء اليهود

(١) الحديث السابق لإدوارد سعيد .

أن فلسطين هي أرض بلا شعب لشعب بلا أرض .. وأن اليهود هم أصحاب الحق التاريخي في هذه الأرض ... سم يصب في رءوسهم،فهل حصناهم ضده بالتاريخ ؟

عرفت أرض فلسطين في التاريخ القديم وحتى عام (١٢٠٠ ق م) بأرض كنعان ، وإطلاق هذا الاسم عليها جاء فيما يسمى اليوم التوراة ، في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين ، كما أطلق هذا الإصحاح نفسه عليها « أرض فلسطين». وفي هذه الأرض نشأ إبراهيم وأبناؤه عليهم السلام ، حتى نزح منها حفيده يعقوب عليه السلام هو وأبناؤه قاصدين مصر . وهنا تنقطع صلتهم بهذه الأرض حتى جاءوها غزاة بقيادة يوشع ، حيث استولى على أريحا وقتل جميع سكانها ، ودمرها وقومه عن آخرها ، وذلك في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وتذكر التوراة - أو ما يسمى التوراة - أن غزوهم لفلسطين صادف مقاومة باسلة عنيدة من الكنعانيين، أو الفلسطينيين أصحاب البلاد ، ويذكر سفر صموئيل الأول ٤ : ٢ « واصطف أصحاب البلاد للقاء إسرائيل ، واشتبكت الحرب ،

فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين وضربوا » ، ويذكر هذا السفر أيضاً أن بني إسرائيل « هربوا كل واحد إلى خيمته ، وكانت الضربة عظيمة جداً وسقط من بني إسرائيل ثلاثون ألف رجل » .

فإذا أردنا أن نعرف بدء علاقتهم - أي العبرانيين - بمدينة بيت المقدس بالذات ، فإننا نجد أن هذه المدينة كان لها وجود حافل قبل أن يدخلها العبرانيون بألفي عام . فهي مدينة قديمة يرجع تاريخها إلى أكثر من ثلاثين قرناً قبل الميلاد ، وقد عاصرت حضارات كثيرة ، وكان لها مع كل منها شأن ، ونظرة عابرة إلى أسمائها التي عرفت بها في التاريخ تشير إلى تلك الحقيقة ، فهي « يبوس » كما ورد اسمها في سجلات الفراعنة ، وهي « أوروسالم» كما كان اسمها عند الكنعانيين ، وهي «أورشليم » كما سماها العبرانيون ، وهي « يروساليم » كما هي عند اليونانيين ، وهي « هيروسلما » أو « سوليموس » أو « إيليا » عند الرومان ، وهي « القرية » أو « بيت المقدس » أو «البيت المقدس » أو « القدس » كما سماها العرب والمسلمون [1] .

(١) « تاريخ القدس » للسيد عارف العارف (ص ١١ وما بعدها)

وكانت مدينة القدس في ابتداء أمرها صحراء خالية بين أودية وجبال ، وكان أول من اختطها «ملكيصادق» ومعناها بالعبرية : ملك الصدق ، والصحيح أن ملكيصادق متأخر في الزمن عن الجيل الأول الذي عاش في هذه البقعة المباركة ، ففي أول الأمر كان المقيمون بها قبائل تعيش في حالة من البداوة الأولى ، وكان ذلك قبل أن يفكر ملكيصادق في تخطيط مدينته على أي شكل من الأشكال . وكما يذكر المؤرخون فإن أول من أقام بها بطن من بطون العرب الأوائل التي عاشت في فجر التاريخ في الجزيرة العربية . ويذكر المؤرخون أنهم كانوا يسمون اليبوسيين تسمية أطلقها عليهم الفراعنة كما يظهر في آثارهم ، ولقد رحل هؤلاء اليبوسيون إلى أرض مدينة القدس حوالي (٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد) ، واستوطنوا بها وارتبطوا بترابها ، حتى إنهم كانوا بعد ذلك أصحابها الشرعيين ، صدوا عنها غارات المصريين ، كما صدوا عنها غارات قبائل العبرانيين التائهة في صحراء سينا . ولقد نجحوا في بناء مدينتهم وعمارتهم ، ونجحوا في صد الغزاة عنها

أزماناً طوالاً عندما كانوا متحدين، فلما تفرقت كلمتهم اشتد طمع العبرانيين فيهم مما اضطرهم إلى التحالف مع المصريين ، وطلبوا عون تحتمس الأول في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فلبى رغبتهم ، وساعدهم في صد غارات القبائل العبرانية ، وأدت بهم هذه الاستعانة إلى نوع من الخضوع لسلسلة من فراعنة مصر لمدة قرنين من الزمان ، وجدير بالذكر أن هذه الاستعانة أو هذا الخضوع لم يفقدهم كيانهم كشعب متماسك يمارس حياة خاصة ، ويحتفظ بحقه في حكم نفسه ، إذ كان المصريون يكتفون بتحصيل الجزية من أهلها .

ولما كان العبرانيون يبحثون لهم عن مستقر لهم يقيهم تيه الصحراء ، فإنهم استمروا في محاولتهم دخول يبوس ، وأخيراً وبعد لأي تمكنوا من ذلك في عهد داود عليه السلام حوالي (١٠٤٩ ق م) ، وهنا جاءت بداية الوجود العبراني في مدينة القدس « يبوس » : حدث بعد أكثر من ألفي عام من وجودها [١] .

---

(١) انظر : « تاريخ القدس » للسيد عارف العارف ، و« الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » لأبي اليمن مجير الدين الحنبلي .

وتؤكد التوراة - أو ما يسمى بذلك - أيضاً غربة اليهود عن القدس ، ففي سفر القضاة ١٩ : ١١ و١٣ نجد قصة رجل غريب وفد مع جماعة له إلى مشارف يبوس - بيت المقدس - (وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر جداً قال الغلام لسيده : تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها ، فقال له سيده : لا نميل إلى مدينة غريبة، ليس أحد من بني إسرائيل هنا) .

إذن فلقد دخل اليهود يبوس في عصر جد متأخر ، على يد داود عليه السلام ، واضطر أهل البلاد الأصليين إلى التعايش مع الغزاة ، ويؤكد المؤرخ « برستيد » أنه حتى في الفترة التي كان لإسرائيل فيها كيان ونفوذ في يبوس وفي عصرهم الذهبي كان ملك إسرائيل بمثابة وال على فلسطين تحت السيادة المصرية [١] .

ومما سبق يتبين أن داود وسليمان عليهما السلام لم يكونا مؤسسي مدينة القدس ، وإنما كانا فاتحين لها بعد ألفي سنة من وجودها ، وكانت عمارتهما لها هي كما يقول صاحب الأنس الجليل (.. تجديد البناء القديم) .

---

(١) انظر : « القدس » لسامي حكيم (ص ١٣ وما بعدها) .

والأهم من ذلك هو إلى متى استمر الكيان السياسي لليهود في فلسطين ؟

بعد موت سليمان عليه السلام حوالي (٩٧٥ ق م) انقسمت المملكة إلى شطرين: شطر يسمى إسرائيل وعاصمتها نابلس دامت نحو مائتين وخمسين عاماً ، وانتهت عام (٧٢١ ق م) ، حيث قضى عليها ملك آشور، ولم تقم لها قائمة بعدها ، والشطر الثاني : يسمى أورشليم ، مملكة يهوذا في الجنوب ، وقد عاشت أكثر من أختها ، وفي عام (٥٩٩ ق م) دمرها نبوخذ نصر ، وسبى جميع أهلها وأرسلهم إلى بابل ، وراح اليهود يعيشون بعد مملكتهم هذه التي استمرت ما يقرب من أربعة قرون فحسب كطائفة دينية يرأسها كاهن ، حتى ظهر المكابيون وقاموا بثورتهم واستولوا على أورشليم عام (١٦٧ ق م) ، وظهر منهم الرؤساء والملوك . وبعد فترة وجيزة كانوا خاضعين للحكم اليوناني مرة وللروماني مرة أخرى رازحين تحت عبء التنازع السياسي والفساد الداخلي ، وذاقوا الدمار ثلاث مرات متوالية على يد الأباطرة : بومبي ، وتيطس ، وأدريانوس

وكاد أن يقضي على دويلتهم الهزيلة ، ولم يقم لهم دولة أو كيان بعد ذلك [1] .

ومما تقدم يتبين أن وجودهم بها حدث واستمر كغزاة ، تتوم العلاقة بينهم وبين أصحاب الأرض الأصليين على هذا الأساس ، كما يتبين أيضاً أن كيانهم السياسي لم يقم بهذه الأرض إلا في فترة متأخرة جداً ، ولبضعة قرون لا تكاد تتعدى في عددها أصابع اليد الواحدة من بين خمسين قرناً مرت على هذه الأرض ، وهي مأهولة متحضرة .

وليس أدل على ضعف ارتباطهم بها من أن زعماء الصهيونية في العصر الحديث عندما بدأوا يفكرون في بناء وطن قومي لهم ، ساغ لبعضهم أن يتجهوا بتفكيرهم إلى بلاد أخرى غير فلسطين ، فهذا « البارون هيرشي » اليهودي الألماني الثري يرى أن الأرجنتين هي أصلح مكان يمكن إقامة دولة اليهود عليه، بل إن هيرتزل نفسه كان على استعداد لقبوله في سورية أو البرتغال أو سيناء أو قبرص أو العريش أو موزمبيق

(١) « خطر الصهيونية على الإسلام والمسلمين » لعبد الله التل (ص ٢٣ وما بعدها) .

أو طرابلس أو أوغندا أو الكونغو [1] ، لولا أن بادرت المصالح الاستعمارية إلى ربط عجلتها بالمطامع الصهيونية فتكاتفا على إحداث المأساة .

بيت المقدس :

أما عن علاقة الإسلام ببيت المقدس ، فقد تحقق لها منذ وجود إبراهيم- عليه السلام- بها ومن بعده ذريته من الأنبياء أنبياء الإسلام وعلى رأسهم محمد ﷺ ، ولقد أعاد رسول الله ﷺ فتحها بأكرم وأرفع وأخلد مجموعة عرفها هذا الكون من البشر ومن الملائكة ، اجتمعت لأول مرة بقيادته ليلة الإسراء والمعراج ، ووضعت حجر الأساس في الوجود الإسلامي المحمدي في المنطقة ، ولقد تابع سيدنا محمد ﷺ تنفيذ هذه الغزوة الملائكية بغزوة تبوك ، وسار من بعده على الدرب أصحابه ، فأذن عمر رضي الله عنه لقائد جيشه على الشام بفتح بيت المقدس ، فأرسل أبو عبيدة بن الجراح - وقد عسكر بالأردن - إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها سلاماً ودعوة إلى الإسلام : «فإن شهدتم بذلك حرمت علينا دماؤكم وأموالكم وذراريكم ، وكنتم لنا إخواناً ،

---

(١) « القدس » لسامي حكيم (ص ٣٦ وما بعدها) . .

وإن أبيتم فأقروا لنا بأداء الجزية »[1] .

وبعد القتال أرسلوا إليه يطلبون الصلح على أن يعطيهم الخليفة نفسه الأمان والعهد، وقد انتقل إليهم الخليفة عمر بن الخطاب حقناً للدم وتوفيراً للجهد ، وتوقياً من التطاول في الأمر ، وأعطاهم العهد الذي جاء به شرطان : أن لا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وأن يخرجوا منها الروم . وأغلب الظن أن الشرط الأول لم يكن محض استجابة من عمر رضي الله عنه لرغبة أبداها البطريرك ، ولكنه كان إلهاماً عمرياً دفعه إلى هذا الشرط ، كما دفعه إلى الشرط الثاني ، ونكبة فلسطين التي نعيشها اليوم بأقسى ظروفها إنما كانت نتيجة الإخلال بهذين الشرطين ، فقد سمح لليهود ، وسمح للاستعمار بأن يدوسا بأقدامهم تلك الأرض المطهرة وتلك بداية الكارثة .

ولقد كان طلب البطريرك دليلاً على عدم وجود اليهود بتلك الأرض ، ولكن اليهود تسللوا بعد ذلك من نافذة التسامح ، بل نقول من ثغور التساهل الذي كان

(١) « الأنس الجليل » (ص/ ٢٤٦ وما بعدها) .

المظهر المنحرف للتسامح الحكيم ، فقد سمح لبعض اليهود أن يكونوا بين خدام المسجد الأقصى يسرجون مصابيحه بعد أن بناه عبد الملك بن مروان ، ثم منع عمر بن عبد العزيز ذلك من بعد [1] .

ولقد استمر بيت المقدس بأيدي المسلمين من حين الفتح العمري إلى سنة (٤٩٢هـ) عندما استولى الفرنجة على بيت المقدس ، وقد قصدوه في نحو مليون مقاتل، وحاصروه نيفاً وأربعين يوماً ، واستولوا عليه في شعبان من تلك السنة ، ولبث الإفرنج يمارسون عملية قتل المسلمين بالقدس أسبوعاً ، وقتل آنذاك داخل المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف مسلم ، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وساداتهم وعبادهم وزهادهم ، وحصروا الباقين ودعوهم إلى الخروج قبل ثلاثة أيام على الأكثر ، وإلا قتلوهم عن آخرهم ، فسارع الناس إلى الخروج ، وقتل في زحام الخروج خلق كثير ، لا يحصيهم إلا الله سبحانه ، ومارس الفرنجة النهب بعد أن فرغوا من القتل ، وذهب الناس مطرودين من الشام إلى

---

(١) « الأنس الجليل » (١/ ٢١٨ وما بعدها) .

العراق (١) .

واستمر بيت المقدس وما جاوره من السواحل بيد الفرنجة إحدى وسبعين عاماً حتى استرد البيت صلاح الدين عام (٥٨٣ هـ) ، ثم استرجعوه في عام(٦٢٦ هـ)، وتم استرداده مرة أخرى على يد الملك الصالح عام (٦٤٢ هـ) .

ولم ينس الفرنجة مأربهم في بيت المقدس فبيتوا للأمر ، وبيتوا له طويلاً ، ودبروا وتآمروا حتى استوى لهم ذلك في عام (١٩١٧م) ، فاحتلوا القدس تحت راية الجيش البريطاني ، وبعثوا إليها الطلائع اليهودية الصهيونية تحت أعلام وعد بلفور .. وقد حدث ذلك في الوقت الذي كانوا يقطعون على أنفسهم وعد الخديعة والغدرللشريف حسين (أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية) (٢) ، ونقف هنا لنسأل: ماذا كان عدد اليهود في بيت المقدس في الفترات التي عرضنا لها ؟

علمنا أنه في الفتح العربي لم يكن بها أحد من

(١) « الأنس الجليل » (ص ٣٠٥ وما بعدها) .
(٢) « تاريخ القدس » للسيد عارف العارف (ص ١٣٣ وما بعدها) .

اليهود ، فإذا انتقلنا سريعاً إلى وقت الاحتلال الصليبي عرفنا أنه لم يكن بها غير المسلمين والمسيحيين ، وأنه لم يكن بها يهودي واحد ، وعندما فتحها صلاح الدين لم يكن بها يهودي واحد كذلك .

وفي عهد السلطان محمد الرابع (١٦٧٠م) كان بها من اليهود عدد لا يزيد على مائة وخمسين ، ثم إن عددهم أخذ يتزايد منذ أواخر القرن الماضي ، مما دعا الحكومة التركية عام (١٨٨٢م) إلى إصدار قانون حرمت فيه الهجرة اليهودية وشراء اليهود للأراضي ، ثم عدلته بعد ذلك بسبب مسعى أمريكي ، وأعطت اليهود حق الدخول إلى فلسطين والبقاء فيها لمدة لا تزيد على ثلاثة أشهر .

ولكن الذي حدث إثر ذلك هو أنهم دخلوا الأرض المقدسة وأقاموا بها وتكاثروا وأنشأوا الكنائس . ولما استقر الأمر للاحتلال البريطاني أخذت الهجرة اليهودية تتزايد، ولم يكن لها شيء يبررها في غير منطق الاستعمار الاستيطاني (١) .

(٢) « تاريخ القدس » للسيد عارف (ص ١٩١ ، ٢٣٦ وما بعدها) .

أما عن المسجد الأقصى الذي يزاحمه الصهاينة ويتهددونه بأوهامهم عما يسمونه هيكل سليمان ، فيجب أن يعرف المسلم أن له تاريخاً أقدم من تاريخ داود عليه السلام . قال الإمام العباسي القرطبي : يجوز أن يكون بناه الملائكة بعد بنائه البيت المعمور بإذن الله تعالى ، وظاهر الحديث يدل على ذلك . والإمام القرطبي يشير في هذا إلى ما رواه المحدثون عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : « قلت : يا رسول الله ، أى مسجد وضع في الأرض أولاً ؟ قال : البيت الحرام ، قلت : ثم أي ؟ قال : بيت المقدس ، قال : قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاماً » أخرجه الإمام أحمد وغيره.

ومن العلماء من قال : بناه آدم عليه السلام ، ومنهم من قال : بناه سام بن نوح عليهما السلام ، ومنهم من قال : أول من بناه وأري موضعه يعقوب بن إسحاق عليهما السلام . وقد تأول بعض العلماء معنى الحديث الشريف الوارد في أن بناء المسجد الأقصى كان بعد بناء المسجد الحرام بأربعين سنة على أن المراد به بناء يعقوب

عليه السلام للمسجد الأقصى بعد بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة الشريفة .

والصحيح ما ذكره صاحب « الأنس الجليل » في تعليقه على ما تقدم بقوله : وهذه الأقوال تدل على أن بناء داود وسليمان عليهما السلام إياه إنما كان على أساس قديم لا أنهما المؤسسان له ، بل هما مجددان . وكل قول من الأقوال الواردة في بناء المسجد الأقصى لا ينافي ذلك : على أساس أن يكون بناه الملائكة أولاً ، ثم جدده آدم عليه السلام ، ثم سام بن نوح عليهما السلام ، ثم يعقوب بن إسحاق عليهما السلام ، ثم داود وسليمان عليهما السلام ، فإن كل نبي منهم بينه وبين الآخر مدة يحتمل فيها أن يجدِّد البناء المتقدمُ(١) .

هذا المسجد كان موجوداً قبل داود عليه السلام ، بدلالة حديث الرسول ﷺ ، ذلك أن هذه المنطقة كانت معمورة قبله ، وكان ممن عمرها من يعبد الله على حق من الأنبياء وأتباعهم ، فهل عاش هؤلاء جميعاً دون أن يبنوا لله مسجداً بالأرض التي عاشوا فيها ؟ تأسيساً كان

---

(١) « الأنس الجليل » (١/ ٧ وما بعدها) .

بناؤهم أو تجديداً ؟

الصحيح أنه كان لإبراهيم عليه السلام نصيب في بناء مسجد لله في الأرض التي عاش فيها في فلسطين ، وعندما يأتي داود عليه السلام ، فإننا نتوقع أن يبحث عن بناء أقامه أجداده ليجدده ، ثم بعد ذلك عندما نتدبر جمع الأنبياء للصلاة بالمسجد الأقصى في الإسراء ، فإننا نحس بأنهم جمعوا في المكان الذي صلوا فيه .

وإذن فالصحيح أن البيت أقدم من داود عليه السلام ، وأنه يمتد إلى زمن إبراهيم، ثم إلى أقدم منه . إذ يكون أول بيت وضع للناس للذي ببكة وضعه الملائكة ، أو بناه آدم - ولا يصح افتراض أن لا يكون في هذا العهد بيت للناس إلى أن يأتي إبراهيم عليه السلام - ثم يكون البيت الثاني قريباً من هذا الوقت ؛ وقت آدم ، لأن ما بينه وبين البيت الحرام لا يتعدى أربعين عاماً ، كما هو صريح الحديث الشريف ، إذن فإن ما فعله إبراهيم أو داود عليهم السلام لم يكن إلا التجديد لما تهدم بمضي الزمان.

وعلى أي حال فليس لإسرائيل اليوم أن تزعم

لنفسها حقاً في هذا المكان المقدس:

أولاً : لأن هيكل داود وسليمان عليهما السلام ليس له أثر على الإطلاق ، بعد أن دمر أكثر من مرة وأقيم مكانه معبد الإله جوبيتر .

ثانياً : لأن المسلمين أولى بداود وسليمان لأنهما صاحبا دعوة إلى الإسلام شأن جميع الأنبياء .

ثالثاً : لأن اليهود هم الذين دنسوا من قبل معبدهم، ذلك أن الملك « يهواش » ملك إسرائيل أغار على المدينة واستباح هيكلها ، وغنم ما فيه من التحف والآنية، ثم قفل إلى السامرة ، وجاء في العهد القديم خبر وفاته على النحو المقبول في عقيدتهم، فقيل : إنه اضطجع مع آبائه ، أي قضى غير مغضوب عليه .

ولقد دنسوه أيضاً إذ قبلوا في فترة من الفترات بوضع الأصنام به ، وشاركوا في عبادتها كما تخبر بذلك التوراة نفسها .

أما المسلمون فقد كانت عنايتهم بالمسجد وتقديسهم له نابعاً من شعورهم الديني العميق الأصيل

بوحدة الأنبياء ووحدة الدين .

لقد وجد عمر رضي الله عنه المكان ممتلئاً بالقمامة التي وضعتها النصارى فيه ، ذلك أن الملكة هيلانة عندما زارت إيليا وبنت فيها كنيسة القيامة عام (٣٢٥م) (١) جعلت مكان الصخرة مطرحاً لقمامات المدينة ، وفي الفتح العمري جعل عمر يكنس القمامة بيده والمسلمون معه ، وبعد أن فرغ من ذلك صلى هناك ، وهناك أقيم المسجد، ثم جاء عبد الملك بن مروان فبنى في نفس المكان مسجد قبة الصخرة ، ثم أعاد بناء المسجد الأقصى ورتب له الخدم والقوام ، واستمرت عناية الدولة الإسلامية به على توالي العصور حتى مجيء نكبة فلسطين على يد الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي .

ومما عرضناه يظهر وفقاً للحقائق التاريخية أصالة الوجود الإسلامي وعراقته بهذه الأرض المقدسة ، وهي تثبت في الوقت نفسه عرضية الوجود الإسرائيلي بها وقيامه على الغزو والطغيان الموقوت نسبياً ، ولم تكن العوامل التي مكنت لإسرائيل في العصر الحديث راجعة

(١) « تاريخ القدس » لعارف العارف (ص ٣٨) .

لشيء بقدر رجوعها إلى جهل المسلمين وتخاذلهم وتفريطهم، ثم إلى قيام التحالف بين الصهيونية الاستيطانية ، والاستعمار الغربي ، وهو لم يكن قط تحالفا إنسانياً ، ولكنه محض تصفية حساب تاريخي بين أوروبا وبين الإسلام .

* * *

قداسة المسجد الأقصى :

تأتي قداسة المسجد الأقصى إسلامياً من قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ .

ومن كونه القِبْلة الأولى ، ففي « صحيح البخاري» بسنده عن البراء بن عازب : أنه صلى رسول الله ﷺ قِبل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً قبل تحويل القِبْلة إلى المسجد الحرام ، ولما في « صحيح مسلم» بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «صلاة فيه - أي في بيت المقدس - أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد » أي : إلا مسجد الكعبة ، ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة.

ولما جاء في « مسند الإمام أحمد » بسنده عن ميمونة مولاة النبي ﷺ أنها قالت : يا نبي الله ، أفتنا في بيت المقدس ، فقال : « أرض المنشر والمحشر ، ائتوه فصلوا فيه ، فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه » ، قالت : أرأيت من لم يتحمل أن يأتيه؟ قال : « فليهد إليه

زيتاً يسرج ، فإن من أهدى إليه كان كمن صلى فيه » ، ومثله في « سنن ابن ماجه » .

ولما في « مسند أحمد » بسنده عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين لعدوهم ، قاهرين لا يضرهم من خالفهم ، إلا ما أصابهم من لأواء ، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك » ، قالوا : يا رسول الله ، وأين هم ؟ قال : « ببيت المقدس ، وأكناف بيت المقدس » .

ولما فيه من تجمع الأنبياء به ، بإمامة محمد ﷺ ، ففي حديث الإسراء في « سنن النسائي الصغرى » بسنده عن أنس بن مالك في حديث طويل جاء فيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام فقدمني جبريل حتى أممتهم ، ثم صعد بي إلى السماء .... » إلخ الحديث .

ولما فيه من تجمع الصحابة به ، ففي « سنن أبي داود» بسنده عن يعلى بن شداد ابن أوس قال : « شهدت مع معاوية بيت المقدس ، فجمَّع بنا فنظرت ، فإذا جل من في المسجد أصحاب النبي- ﷺ- » .

ومن حضر بيت المقدس من الصحابة: أبو عبيدة بن الجراح (ت ٨ هـ ن) ، ومعاذ بن جبل الأنصاري (ت ١٨ هـ) ، وبلال بن رباح (ت ١٩ هـ ن) ، وأبو هريرة (ت ٥٦ هـ) ، ومعاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠ هـ) ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص (ت ٧٥ هـ) ، وعبد الله بن عباس (ت ٦٨ هـ) ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب (ت ٧٣ هـ) ، وعوف بن مالك بن عوف الأشجعي (ت ٧٣ هـ) ، وأبو جمعة الأنصاري (ت ٧٧ هـ) .

ومن أعلام الإسلام وأئمة المسلمين : مالك بن دينار (ت ١٢٣ هـ) ، ورابعة العدوية (ت ١٣٥ هـ) ، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ) ، وسفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) ، وإبراهيم بن أدهم (ت ١٦١ هـ) ، والليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) ، ووكيع بن الجراح (ت ١٩٨ هـ) ، ومحمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، وبشر بن الحارث الحافي (ت ٢٢٦ هـ) ، وذو النون المصري (ت ٢٤٥ هـ) ، والسري السقطي (ت ٢٥١ هـ) ، وبكر بن سهل المحدث (ت ٢٨٩ هـ) ، وابن جماعة المقدسي (ت ٤٨٠ هـ) ، والإمام الغزالي

(ت ٥٠٥ هـ)، وأبـو بكر الـطرطوشـي (ت ٥٢٠ هـ) ، وأبو بكر بن العـربي (ت ٥٤٣ هـ) ، ومئـات غيـرهم لا يحصون من أعلام المسلمين (١) .

فماذا تعرف أجيـالنا وما ذا في مناهجهم التربوية من ذلك وتلك قضية المصير ؟؟

❊ ❊ ❊

(١) انظر : « الأنس الجليل » (١/ ٢٦٠ وما بعدها) .

الفصل الثاني

التشويـــــه

التشويه

وأما الاتجاه الثاني : في تشويه ما لا يمكن محوه فنجده في تاريخ الصحابة ، وتاريخ الدولة الأموية ، والعباسية ، والعثمانية ، والحملة الفرنسية أيضاً .

تشويه الصورة الإسلامية لبعض الصحابة :

ولقد بدأ الغزو هنا بالتركيز على الصحابة والتابعين ، كأنما لم يجد الغزاة مجالاً يكتبون فيه بحوثهم أو مقالاتهم أو قصصهم إلا فترات الفتنة التي لا تتعدى بضع سنين هنا أو بضع سنين هناك :

إنهم يكتبون عن « الفتنة الكبرى » ، ويهمشون السيرة النبوية بجعلها أساطير كأساطير اليونان ، ويكتبون عن « الحسين ثائراً » أو « ثأر الله » ، ويكتبون عن عليّ رضي الله عنه : « إمام المتقين » ، فمن يكون محمد إذن ؟ ﷺ ، ويكتبون عن يزيد، والحجاج .. وقرأناهم ، واستمتع بعضنا بهم .. وانزلق بعض رجال الدعوة الإسلامية - وهذا هو موطن الخطر - ووقعوا في الفخ ، وصاروا يوجهون سهام نقدهم إلى فترات

التاريخ الإسلامي ، ولا يجدون فيه - انسياقاً مع هذا المخطط - فترة تستحق الاحترام غير الجيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم ، أو بعضهم في بعض الأحيان. فسهلوا على الغزاة اقتحام بقية الحصون ، وصار المسلم المعاصر يشعر بالعار أمام تاريخه الطويل .

وجاء العلمانيون - أخيراً - ليحصدوا الثمار قائلين : ها لقد فشل الإسلام تاريخياً ، فعليكم أن تواروه التراب .

لو كنا على وعي كاف بأبعاد المعركة لوقفنا جميعاً ضد هذا التيار ، ودافعنا عن الصحابة ، ومن بعدهم ، من منطلق إيماننا واستنادنا إلى ما هو أقوى من رواياتهم المكذوبة بحكم المنهج العلمي الصحيح .

فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، ويقول : ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ ، ويقول: ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ ، ويقول : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً

يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ﴾ ، والمراد بمن معه - عن ابن عباس رضي الله عنهما - : من شهد الحديبية ، أهل بيعة الرضوان ، الذين بايعوه تحت الشجرة ، وكان عددهم (١١١٥ صحابياً) . وقال جمهور العلماء : المراد بهم : جميع أصحابه ﷺ . وفي « الصحيحين » : « لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحداً أنفق مثل أُحُد ذهباً ، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ، وروى الترمذي بسنده عنه ﷺ قوله : « الله آلله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

ويقول ﷺ : « عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي » رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح على شرطهما ، ولا أعلم له علَّة .

وفي « الصحيحين » : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »، وقد جمعهم الله تعالى في آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ والسابقون

الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه » ، ولا يرضى الله إلا عمن علم حسن خاتمتهم ووفاتهم على المحجة البيضاء .

أما في قوله ﷺ : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » :

فنجد طائفتين من الأئمة والعلماء : من يستشهدون به على فضل الصحابة .

ومن يحكمون بضعفه - أو بوضعه - لكن بعض هؤلاء يقبل معناه ، استناداً إلى حديث آخر صحيح أخرجه مسلم بسنده عن أبي بردة ، عن أبيه قال : صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ، ثم قلنا : لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء ، قال : فجلسنا، فخرج علينا فقال : ما زلتم ههنا ؟ قلنا : يا رسول الله ، صلينا معك المغرب ، ثم قلنا : نجلس حتى نصلي معك العشاء ، قال : أحسنتم أو أصبتم ، قال : فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء ، فقال : « النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون » .

وممن استشهد بحديث « أصحابي كالنجوم » : ابن عبد البر في كتابه « التمهيد » (٤/ ٢٦٣ - ٢٦٧) بعد حكايته خلافاً بين ابن عباس والمسور بن مخرمة رضي الله عنهم في حكم غسل رأس المحرم ، ورجوعهما في ذلك إلى أبي أيوب الأنصاري ، وأخذهما بما نقل أبو أيوب عن رسول الله ﷺ : قال ابن عبد البر : (وهذا يبين لك أن قول النبي ﷺ : « أصحابي كالنجوم » هو على ما فسره المزني من أهل النظر أن ذلك في النقل ، لأن جميعهم ثقات مأمونون عدل ، فواجب قبول ما نقل كل واحد منهم ، وشهد به على نبيه ، ولو كانوا كالنجوم في آرائهم واجتهاداتهم إذا اختلفوا لقال ابن عباس للمسور: أنت نجم وأنا نجم ، فلا عليك ، وبأينا اقتدي فقد اهتدى، ولما احتاج إلى طلب البينة والبرهان من السُّنَّة على صحة قوله » .

وفي « تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي » للمباركفوري (١٠/ ١٥٥ - ١٥٦) بعد شرح حديث : « أنا دار الحكمة وعلي - أي ابن أبي طالب رضي الله عنه - بابها » أي : الذي يدخل منه إليها ، وأنه لا يعني

أن علياً بابها الوحيد يقول : (ومما يدل على أن جميع الأصحاب بمنزلة الأبواب قوله -ﷺ-: « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » من الإيماء إلى اختلاف مراتب أنوارها في الاهتداء ، فعلم عدم انحصار البابية في حقه - أي عليّ رضي الله عنه - ، اللَّهُمَّ إلا أن يختص بباب القضاء ، فإنه ورد في شأنه أنه أقضاكم ، كما أنه جاء في حق أُبَيّ أنه أقرؤكم ، وفي حق زيد بن ثابت أنه أفرضكم ، وفي حق معاذ بن جبل أنه أعلمكم بالحلال والحرام».

وجاء في « المغني » لابن قدامة المقدسي (٣/ ٢٦٩) بعد أن ذكر قضاء الصحابة في بعض أحكام الصيد في حالة الإحرام : « ولنا قول النبي ﷺ : «أصحابي كالنجوم بأيهم اهتديتم » ، وقال : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»، ولأنهم أقرب إلى الصواب وأبصر بالعلم ، فكان حكمهم حُجَّة على غيرهم كالعالم مع العامي » .

وقال القاري في شرح قوله ﷺ : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به .. كتاب الله وعترتي أهل بيتي » - فيما

نقله عنه المباركفوري في كتابه « تحفة الأحوذي » (١٠/ ١٩٦) : (والمراد بالأخذ عنهم : التمسك بمحبتهم .. وهو لا ينافي أخذ السُّنَّة من غيرهم لقوله ﷺ : «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ») .

أما الحافظ ابن حجر العسقلاني في « تلخيص الحبير » (١/ ١٩٠) فقد قال عن حديث : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » : رواه عبد بن حميد في «مسنده » من طريق حمزة النصيبي عن نافع ، عن ابن عمر ، وحمزة ضعيف جداً . ورواه الدارقطني في « غرائب مالك » من طريق حميد بن زيد عن مالك ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جابر ، وحميد لا يعرف ولا أصل له في حديث مالك ، ولا من فوقه .

وذكره البزار من رواية عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه، عن سعيد بن المسيب، عن عمر ، وعبد الرحيم كذاب .

ومن حديث أنس أيضاً ، وإسناده واهٍ .

ورواه القضاعي في « مسند الشهاب » له من حديث الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، وفي

إسناده جعفر بن عبد الواحد الهاشمي،وهو كذاب.ا هـ.

ولكن ابن حجر يقول بعد ذلك : (وقال البيهقي في الاعتقاد عقب حديث أبي موسى الأشعري الذي أخرجه مسلم بلفظ : « النجوم أمنة أهل السماء » إلخ : (روي في حديث موصول بإسناد غير قوي يعني : حديث عبد الرحيم العمى ، وفي حديث منقطع يعني : حديث الضحاك بن مزاحم : « مثل أصحابي كمثل النجوم في السماء من أخذ بنجم منها اهتدى» ، قال : والذي رويناه ههنا من الحديث الصحيح يؤدي بعض معناه) . قلت - والكلام لابن حجر - : صدق البيهقي، هو يؤدي صحة التشبيه للصحابة بالنجوم خاصة ، أما في الاقتداء فلا يظهر في حديث أبي موسى، نعم يمكن أن يتلمح ذلك من معنى الاهتداء بالنجوم ، وظاهر الحديث إنما هو إشارة إلى الفتن الحادثة بعد انقراض عصر الصحابة من طمس السنن وظهور البدع وفشو الفجور في أقطار الأرض، والله المستعان. ا هـ كلام الحافظ ابن حجر.

حديث : « اختلاف أصحابي لكم رحمة » :

في « كشف الخفاء » لابن العجلوني (١/ ٦٦ - ٦٨) في حديث : « اختلاف أمتي رحمة » جاء قوله :

(قال في المقاصد : رواه البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرى » بسند منقطع عن ابن عباس بلفظ : قال رسول الله ﷺ : « مهما أوتيتم من كتاب الله فالعمل به لا عذر لأحد في تركه ، فإن لم يكن في كتاب الله فسنة مني ماضية ، فإن لم تكن سنة مني فما قاله أصحابي ، إن أصحابي بمنزلة النجوم في السماء ، فأيما أخذتم به اهتديتم واختلاف أصحابي لكم رحمة » ، ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني والديلمي بلفظه، وفيه ضعف .

وعزاه الزركشي وابن حجر في « اللآلئ » لنصر المقدسي في الحجة مرفوعاً من غير بيان لسنده ولا لصاحبه .

وعزاه العراقي لآدم بن أبي إياس في كتاب « العلم والحكم بغير بيان » لسنده أيضاً بلفظ : اختلاف أصحابي رحمة لأمتي ، وهو مرسل ضعيف .

وهذا اللفظ أيضاً ذكره البيهقي في رسالته

الأشعرية بغير إسناد ، وفي « المدخل » له عن القاسم بن محمد من قوله : «اختلاف أصحاب محمد -ﷺ- رحمة لعباد الله»، وفيه أيضاً عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقول : « ما سرني لو أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » ، وفيه أيضاً عن يحيى بن سعيد أنه قال : اختلاف أهل العلم توسعة وما برح المفتون يختلفون فيحلل هذا ويحرم هذا، فلا يعيب هذا على هذا .

ثم قال في « المقاصد » أيضاً : قرأت بخط شيخنا - يعني الحافظ ابن حجر - : أنه حديث مشهور على الألسنة ، وقد أورده ابن الحاجب في « المختصر » في مباحث القياس بلفظ : « اختلاف أمتي رحمة للناس » . وكثر السؤال عنه ، وزعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له، لكن ذكره الخطابي في «غريب الحديث» مستطرداً فقال: اعترض هذا الحديث رجلان ؛ أحدهما ماجن والآخر ملحد ؛ وهما إسحاق الموصلي وعمرو بن بحر الجاحظ ، وقالا : لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق عذاباً ، ثم تشاغل الخطابي برد كلامهما ولم يشف في

عـزو الحديث ، لكنه أشـعـر بأن له أصلاً عنده ، ثم قـال الخطابي : والاخـتلاف في الـدين ثلاثة أقسـام : الأول : في إثبات الصانع ووحدانيته وإنكاره كفر ، والثاني : في صفاته ومشيئته وإنكارهمـا بدعة، والثالث : في أحكام الفروع المحتـملة وجوهاً ؛ فهذا جعله الله رحمـة وكرامة للعلماء ، وهو المراد بحديث : «اختـلاف أمتي رحمة » . انتهى .

وقـال النووي في « شـرح مـسلم » : ولا يلزم من كون الشيء رحـمة أن يكون ضـده عذاباً ، ولا يلزم هذا ويذكره إلا جاهل أو متجاهل ، وقد قال تعالى : ﴿ ومن رحمـته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ ، فـسمى الليل رحمة ، ولا يلزم من ذلك أن يكون النهار عذاباً . انتهى .

ومثله يقال فيـما رواه ابن أبي عاصم في « السنة » عن أنس مـرفـوعاً : « لا تجـتـمع أمـتي على ضـلالة » ، ورواه الترمذي عن ابن عمـر بلفظ : « لا يجمع الله أمتي على ضـلالة ويد الله مع الجـمـاعـة » ، ورواه أحـمـد والطبـراني في « الكـبـيـر » عن أبي نصـر الغـفـاري في حـديث رفـعه : « سـألت ربي أن لا تجـتـمع أمـتي على

ضلالة » ، فقد قيل: مفهومه : أن اختلاف هذه الأمة ليس رحمة ونعمة ، لكن فيه ما تقدم نظيره عن النووي وغيره ، وفي الموضوعات للقاري أن السيوطي قال : أخرجه نصر المقدسي في الحجة ، والبيهقي في الرسالة الأشعرية بغير سند ، ورواه الحليمي والقاضي الحسين وإمام الحرمين وغيرهم ، ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا .

ثم قال السيوطي عقب ذكره لكلام عمر بن عبد العزيز : وهذا يدل على أن المراد اختلافهم في الأحكام الفرعية ، وقيل : في الحرف والصنائع ، والأصح الأول ، فقد أخرج الخطيب في رواة مالك عن إسماعيل بن أبي المجالد قال : قال هارون الرشيد لمالك بن أنس : يا أبا عبد الله ، نكتب هذه الكتب - يعني : مؤلفات الإمام مالك - ونفرقها في آفاق الإسلام لنحمل عليها الأمة ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن اختلاف العلماء رحمة من الله تعالى على هذه الأمة ، كل يتبع ما صح عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله تعالى .

وفي « مسند الفردوس » عن ابن عباس مرفوعاً :

اختلاف أصحابي لكم رحمة .

وذكر ابن سعد في « طبقاته » عن القاسم بن محمد أنه قال : كان اختلاف أصحاب محمد ﷺ رحمة للناس .

وأخرجه أبو نعيم بلفظ : كان اختلاف أصحاب رسول الله رحمة لهؤلاء الناس.ا هـ من «كشف الخفاء».

وفي رسالة العلامة الشيخ عبد الحي اللكنوي الهندي الموسومة بإقامة الحجة ما نصه : ورد كثير من الأحاديث الدالة على الاقتداء بسيرة الصحابة كحديث : «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » أخرجه الدارقطني في « المؤتلف » ، وفي كتاب « غرائب مالك»، والقضاعي في « مسند الشهاب » ، وعبد بن حميد ، والبيهقي في « المدخل » ، وابن عدي في «الكامل » ، والدارمي ، وابن عبد البر، والحاكم ، وابن عساكر ، وغيرهم بألفاظ مختلفة المبنى ، متقاربة المعنى بطرق متعددة، كلها ضعيفة كما بسطه الحافظ ابن حجر في « الكافي الشافي » في تخريج أحاديث الكشاف ، لكن بكثرة الطرق وصل إلى درجة الحسن ، ولذلك حسّنه الصاغاني ، صاحب « العباب في اللغة » . كما

ذكر ذلك الجرجاني في حاشية «المشكاة» (١) .

يقول الإمام ابن حجر : (اعلم أن الذي أجمع عليه أهل السُّنَّة أنه يجب على كل أحد تزكية جميع الصحابة ، وإثبات العدالة لهم ، والكف عن الطعن فيهم، مع الثناء عليهم فقد أثنى الله عليهم في كتابه العزيز) .

وقد اعتبر علماء المسلمين - ومنهم الإمام مالك رضي الله عنه - أن القدح في أصحاب رسول الله ﷺ قدح في الرسول ﷺ ، وتلفيق الروايات في مثالبهم وخلافاتهم لا يعدو أن يكون القصد منه الرسالة المحمدية ، والذي جاء بها ، والذي جاء فيها .

يقول الإمام أبو بكر الإسماعيلي (ت ٣٧١) عن اعتقاد أهل السُّنَّة فيمن يبغض الصحابة : (ومن غاظه مكانهم من الله فهو مخوف عليه ما لا شيء أعظم منه لقوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ محمد رسول الله والذين معه ﴾ إلى قوله : ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم

(١) كتاب « الرد على الفرقتين » للسمنودي (٢/٢٢٨ - ٢٣١) .

الْكُفَّارَ﴾ ، فأخبر أنه جعلهم غيظاً للكافرين .

وأنهم - أي أهل السُّنَّة - (قالوا بخلافتهم -أي الصحابة - لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم﴾ فخاطب بقوله : ﴿ مِنكُمْ ﴾من ولد الآن، وهو مع النبي -ﷺ- على دينه، فقال بعد ذلك : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ ،سورة النور من الآية : ٥٥. فمكن الله بأبي بكر وعمر وعثمان) [١] .

ونحن نقول - وبناء على ما تقدم من تحقيق منهجي في مكانة الصحابة - : يصبح على المسلم أن يرفض أي رواية تاريخية تخالف ذلك ، لأنها كاذبة في منهجه العلمي والإيماني معاً .

إنه من الغريب أن بعض هؤلاء الذين يشككون في الصحابة وهم يدققون منهجياً فيما يقدم لهم من حديث الرسول ﷺ - ولهم الحق كل الحق في ذلك - يتساهلون

(١) « اعتقاد أهل الحديث » لأبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي (١ / ٧٣) .

إلى أبعد حد في قبول بعض أخبار التاريخ ، وقد يكون نبأ من فاسق ، وهو الأمر الذي جر الويلات في طعن تاريخنا في الصميم .

وإنه ليغيب عن الكثير منا أن التاريخ الإسلامي لم يكن يكتب في حينه ، ولكن في ظل الدولة الجديدة ، وقد تولى كتابته نماذج مختلفة من المؤرخين ، يتباينون في اتجاهاتهم ، ودوافعهم ، منهم مؤرخون ثقات ، أمثال ابن جرير الطبري ، وابن الأثير ، وابن كثير ، وقد وضع هؤلاء لأنفسهم منهجاً علمياً معلناً : هو أن يذكروا أسماء الرواة الذين ينقلون عنهم ، وأن يذكروا الأخبار كلها من مختلف المصادر ، ثم يتركون لمن بعدهم أن يميز بين الصحيح وغير الصحيح .

ثم لحق التشويه بمنهج هؤلاء ممن جاء بعدهم ، حيث ذكروا رواياتهم بعد أن جردوها من الأسانيد ، وضموا الروايات بعضها إلى بعض للاختصار ، أو لأغراض خاصة ، فاختلط الحابل بالنابل ، وأصبح من الصعب على قرائهم أن يفرقوا بين روايات الثقات ، وروايات أصحاب الأهواء ، فنشأ من ذلك ترديد لكثير

من الأخبار الـتي اختلقها أعـداء الإسلام ، ووصل الأمر - حديثاً - إلى نقل الأخبار مـن مراجع السمار ، كالذي انساق إليـه الكتـاب المحدثـون من الأخذ من كـتـاب « الأغانـي » لأبي الفرج الأصـفهـاني ، واعتـباره مـصدراً للتاريخ ، ودرة للتراث !!

وإن المرء ليـسـتـغرب من هؤلاء المحـدثين لو أنهم كانوا يهدفـون إلى متعة البحث ، أو إلى مـتعة الفن ، أو إلى متعة الصراع بين الحق والباطل (الدراما) ، فقد كان أمامهم متسع لا يلتقون فيه بالشبهات ، ولا يحركون فيه مواجـع المسلمين ، ولا يدفعـونهم إلى تأجيج نار الـثأر ، وتحريك عـوامل الفرقـة والتمزق ، لقـد كانت أمـامهم: حروب الردة التي اشـتعلت في آخر حيـاة الرسول ﷺ ، وحروب مـدعي الردة من أمثـال : الأسود بن كـعب بن عوف العنسي ، ومـسيلمة الكذاب ، وطليحـة ابن خالد الأسود ، وذي التاج لقيط بن مالك الأزدي .

وفي حروب الـدولة الإسلاميـة مع فرقـة الراوندية التي ابتدأ خروجها منذ أواخر الدولة الأموية وامتدت في عهد المنصور : وقد كـانوا يطوفون بقصره قائلين : (هذا

قصر ربنا) ، فلما صدهم عن ذلك ثاروا عليه وحاربوه.

وفي الحرب البابكية التي استمرت أكثر من عشرين عاماً ، من عهد المأمون (٢٠١هـ) إلى عهد المعتصم (٢٢٣ هـ) ، وكانت حرباً فارسية ضد الإسلام، تحالفت في الوقت نفسه مع الدولة البيزنطية .

وفي حروب المسلمين مع الدولة الرومانية التي لم تهدأ قط منذ ظهور الإسلام ، مروراً بالحروب الصليبية إلى نكبة الأندلس إلى العصر الحاضر ، حيث تعتبر أوروبا نفسها وريثة تلك الدولة الرومانية ، في ثأرها ضد من أزاحوها من جنوب البحر الأبيض وشرقه ، وحيث تعتبر أوروبا نفسها في صراع مستمر مع الإسلام الذي أزاحها من هذه المناطق .

في كل ذلك وفي غيره مجالات لا تنفد لمن يريد استنطاق التاريخ دروس الحق والخير والجمال . لكن أولئك يجدون أنفسهم مزنوقين في حوادث الفتنة بين الصحابة والتابعين لأغراض لا تخفى على أحد ، وتم إعلانها في قول أحد دعاتهم : (أن نمحو من قلوب المصريين أفراداً وجماعات هذا الوهم الآثم !! الشنيع

الذي يصـور لهـم أنهم خلقـوا من طينة غـير طـينة الأوروبي،وفطروا على أمزجة غيـر الأمزجة الأوروبية ، ومنحوا عقولاً غير العقول الأوروبية) .

وأخـيراً ، جـاءت الطبـعـة الأخيـرة من المحـاربين للإسلام ليقولوا : (إن التجـارب التاريخية - في الحكم الإسلامي - لم تكن إلا سلسلـة طويلة من الفشل ..) . و(أن الاستـشـهـاد بعصـر الخلفاء الراشـدين هو في ذاته دليل على أن الإسـلاميين لم يجـدوا ما يسـتشـهدون به طوال التـاريخ التالي الذي ظـل الحكم فيـه يمارس باسم الشـريعة ، أي أن الـتطبيق الذي دام مـا يقـرب من ثلاثة عشـر قرناً كـان في واقع الأمر نكرانـاً لأصول الشريـعة وخروجاً عليها) .

ونحن نقـول : إنه إذا كان مـن المسلم به أن عصـر الخلفـاء الراشـدين كـان هو الأقرب إلى مـثـاليـة النظام الإسـلامي ، فإن هذا لا يعني أنه كـان عصـراً عقـيمـاً لا ينجب، ولكن يعني أنه - وبالنظرة العلميـة أيضاً - قابل للتكرار ، وفقـاً لقانون السبب والنتـيجة ، فكلمـا حصل السبب كان لا بد للنتيجة أن تحصل ، بإرادة الله ، وليس

في الأمر خصوصية فرد ، أو معجزة عصر ، ولكن حيث يتوفر القبول للنظام الإسلامي والرغبة فيه يظهر الإنسان المشابه والعصر المشابه لعصر الخلفاء الراشدين .

ومهما يكن من أمر فإنه ليصح القول بأن النظام الذي يثمر أبا بكر وعمر ، ولو على سبيل الندرة المطلوبة لهو أفضل - تاريخياً وعملياً - من الأنظمة التي لم تثمر شيئاً من ذلك ، إن الندرة - مع كونها كذلك - تظل مقياساً تقاس به طبيعة الأنظمة - مع كونها كذلك - تظل مقياساً تقاس به طبيعة الأنظمة ، ومدى ما تصل إليه في مدارج الصلاح أو الفساد على مدى التاريخ .

فالنظام الذي يكون أعظم ما يصل إليه - بالندرة - أن يقدم شخصية عمر غير النظام الذي يكون أقصى ما يصل إليه شخصية الإسكندر ، أو شخصية ستالين ، أو شخصية كلينتون ، أو شخصية « مايكل چاكسون » المغني المخنث ذائع الصيت ، مع دخول أولئك جميعاً في خانة الندرة المطلوبة ، لكن لكلٍّ دلالته على فضيلة عصره أو خسته .

❊ ❊ ❊

تشويه صورة الأمويين :

إن الأمويين عموماً كما يقرر المؤرخون أصحاب دعوة إسلامية : تمرنوا على قيادة الجيوش ، وحكم الناس، منذ عهد الرسول ﷺ ، وكان أكثر عماله منهم ، وقد امتد ملك الإسلام في عهدهم من سواحل الأطلنطي إلى بلاد الصين ، ومن جبال القوقاز ، إلى خط الاستواء وما وراءه . ودخلت الإسلام في عهدهم أمم الأرض كلها : من العرب والسريان ، والفرس ، والكلدان ، والمصريين ، والنوبيين ، والبربر ، والسودان ، واليونانيين ، والهنود ، والترك ، والتتار ، وأمست آي القرآن تتلى في سمرقند كما تتلى في قرطبة ، وكاد الإسلام أن يستقر في جنوب فرنسا بعد أن اجتاحها .

هذا الحجاج بن يوسف الثقفي الذي ينصبونه هدفاً لطعناتهم للتاريخ الإسلامي وإفراغه من محتواه يقول عنه الدكتور عمر فروخ : (لما جاء الحجاج إلى العراق كانت حروب الفتن قد خربت الدور ، وطمرت الأقنية ، فخلت المزارع من فلاحيها، وهجر معظم أهل القرى قراهم ، فلم يبدأ الحجاج إصلاح البلاد وتنظيم الإدارة

بإصدار المراسيم ، والقوانين ، ولكنه أعاد بناء البلد وأصلح الطرق ، وأعاد حفر الأقنية ، بعدئذ أمر أهل القرى بالرجوع إلى قراهم ، وأخذ يجمع الضرائب وإرسال الجيوش إلى الفتوح ، فانتشر الأمن في طول البلاد وعرضها ، حتى كانت المرأة تنام وحيدة في بيتها ، وباب بيتها مفتوح ، ولما مات الحجاج بن يوسف خلف مصحفاً وسيفاً ، وعشرة دراهم فضة) .

وماذا عن الدولة الأموية بالأندلس ؟ ألم تكن هي التي استقرت هناك ثم أرسلت الحملة إثر الحملة لفتح فرنسا ، حتى تمكنت على يد الوالي القائد عبد الرحمن الغافقي - الذي عين والياً على الأندلس من قِبَل هشام بن عبد الملك عام (١١٢هـ)- من دخول فرنسا وفتح النصف الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر ، والاستيلاء على بواتييه وإن وقعت هزيمته فيها والخروج منها بعد ذلك ؟

وماذا عن الدولة العباسية ؟

لا خلاف على أن كانت جماع التقدم البشري شعراً وأدباً ، وعلماً دينياً وعلوماً دنيوية ، وسياسة ،

وقوة، وهيبة ، واتساعاً ، ومستوى معيشة أصبح يرمز إليها في وجدان الغرب بعالم ألف ليلة وليلة . يقول الأستاذ محمد كرد علي في كتابه عن الحضارة الإسلامية: (في القرون التي كانت فيها العرب تنعم بلذائذ العقل والعمل والمال وتأخذ من مسرات الحياة الفاضلة بأوفر نصيب ، ويهاب سطوتها البدو والحضر، وتؤلف أمة متحضرة وحكومات ناهضة ، كان الغربيون - بمواريثهم اليونانية والرومانية واليهودية والمسيحية - متوحشين جاهلين لا يعرفون الترف ، ولا يتذوقون عيش الرفاهية ، لا أمن ولا إدارة ، ولا ملوك يعرفون واجبهم في إقامة العدل ، وتوطيد الأمن) .

وماذا عن الدولة العثمانية المفترى عليها ؟

إن هذه الدولة - كما يقرر المؤرخون المتخصصون، ومنهم أ د/ أحمد عبد الرحيم مصطفى - استطاعت أن تعيد لدار الإسلام حضورها وهيبتها ومنعتها بعدما لحق بها من التفرق والانحسار ، وأن تحمي حياض المسلمين من البرتغاليين الذين غزوا شرق الجزيرة العربية توطئة لدخول البحر الأحمر والزحف إلى مكة المكرمة وهدم الكعبة .

وظل العثمانيون طوال ستة قرون الدرع الواقية للأمة الإسلامية ضد أطماع الاستعمار الأوروبي ، وكانوا الذين فتحوا باسم الإسلام مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وأطلقوا عليها اسم « إسلامبول » ، ومنها انطلقوا يرفعون راية الإسلام في قلب أوروبا : في يوجوسلافيا ، وبلغاريا ، وألبانيا ، ورومانيا ، واليونان .

وكان العثماني يعتبر إمبراطوريته التي ما لبثت أن ضمت كل المراكز الإسلامية الكبرى وكأنها الإسلام ذاته، بحيث أصبح الإسلام في العهد العثماني - وفي أوج قوة الدولة - على مستوى رفيع من الأهمية والنفوذ.

في تلك الدولة - كما يقول الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى - : تغلغل الإسلام في كيان الأمة حتى لم يعد لمصطلح « عثماني » مدلول قومي ، وبحيث ظل العثمانيون حتى القرن التاسع عشر يعتبرون أنفسهم مسلمين في المحل الأول ، وكان الإسلام هو الشرط الأساسي للتمتع بالسلطة والامتياز .

ولم يكن لفظ « تركي » يستعمل في أوج العصر

العثماني إلا قليلاً للإشارة إلى «التركمان» ، ثم بعد ذلك إلى الفلاحين الخشنين الجهلة ، الذين يتكلمون اللغة التركية ، ويقطنون قرى الأناضول ، وحتى القرن التاسع عشر لم يتخذ التركي لقب تركي .

وحين استعمل الأوروبي هذه الكلمة كان يعني في الواقع « مسلماً أو كافراً » ، ويشهد التاريخ بأن الدولة العثمانية كانت حتى قبل توسعها في العالم العربي تطبق الشريعة الإسلامية بدلاً من القانون البيزنطي القديم في المناطق التي لا يجد سكانها صعوبة في فهمها ، ثم ما لبثت بعد أن استقرت في استامبول عام (١٤٥٣م) أن أخذت بالقوانين الإسلامية دون غيرها حتى انهيارها في الحرب العالمية الأولى .

ورغم أن السلطان العثماني كان يتمتع بسلطة لا يقيدها قانون مدني ، إلا أنه لم يكن بذلك حاكماً مطلقاً كما يقال ، وذلك لأنه لم يكن ليستطيع خرق الشريعة الإسلامية ، علناً على الأقل ، ولم يكن يتمتع بالجمع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية بالمعنى الصحيح لهذا المصطلح لتقيده الأساسي بالشريعة الإسلامية ، وكانت

القوانين التي يصدرها لا مفر من أن تكون متفقة مع القرآن والسنّة والمذاهب الفقهية الأربعة .

ومنذ أواخر القرن الخامس عشر كان السلاطين قد أقاموا هيئة من أهل العلم الفقهاء ، والتي كان رؤساؤها شيخ الإسلام وكبار القضاة ، يستشارون فيما يمس شئون الدولة الهامة ، وكانت مشروعات القوانين تعرض على شيخ الإسلام قبل إقرارها لكي يدرس مدى مطابقتها للشريعة الإسلامية ، وكان هو المختص بأن يصدر الفتوى - قبل إعلان الحرب - بأن أهدافها لا تتعارض مع الدين ، كما كان له الرأي في علاقة الدولة بالدول غير الإسلامية وقوانين الضرائب ، ولم تكن هذه الإجراءات صورية ، فكثيراً ما أدى رفض المفتي إلى إرغام السلطان على العدول عن مشروعاته، بل إن تصريح المفتي بأن السلطان لا يحترم مبادئ الشريعة يعني مباشرة أنه غير صالح لتولي الحكم ، وكان ذلك كفيلاً بالتمهيد لخلعه . ولم يكن هذا النفوذ الشرعي محاصراً في شخصية المفتي الأكبر ، أو شيخ الإسلام . وإنما كان يمثل القاعدة الشعبية للدولة ، إذ إنها حرصا

منها على المحافظة على الشريعة أبدت اهتماماً رفيعاً بالفقهاء الدينيين الذين أدخلتهم في جهاز الدولة .. ، ومن ثم كان الوزراء العثمانيون الأوائل من الفقهاء ، وما لبث تنظيم الفقهاء أن امتد إلى جهاز الدولة بأسرها بحيث تطرق إلى أدنى المستويات في الولايات ، فقد كان كل سنجق يضم قضاة ومفتين لا بد من استشارتهم في كل المسائل التي تتعلق بالشريعة ، وكانت أحكامهم بمثابة قوانين لا يحد من فعاليتها سوى الرجوع إلى استامبول .

ومن التشويه ما يشاع ضد الدولة العثمانية من أن تعصبها للإسلام أدى بها إلى اضطهاد المسيحيين ، وذلك بغرض تكريس النهج العلماني في البلاد الإسلامية ، وغلق باب التفكير في إعادة هيمنة الإسلام على الدولة ، ويرد الأستاذ الدكتور أحمد طربين أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة دمشق على ما جاء من ذلك بكتاب « أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية » لمحمد مخزوم - نشرت ببيروت عام (١٩٦٨) ، فيقول : (إن عديداً من المؤرخين المنصفين يرون أن السلاطين برغم اعتقادهم

في قرارة نفوسهم بأن المسيحيين لا بد أن يكونوا حلفاء طبيعيين للقوى الأوروبية المسيحية المعادية للعالم الإسلامي ، فإنهم لم يتجاوزوا حدود معاملة المسلمين السمحة التي كانت سائدة في العالم العربي الإسلامي قبل استيلائهم عليه ، بل كان تسامح الأتراك العثمانيين مع مسيحيي الولايات العربية أشد وضوحاً من تسامحهم مع مسيحيي البلقان الذين كانوا في بلادهم أغلبية تتآمر مع النمسا .

كما يرون أن الدولة العثمانية حافظت على أملاكهم وحرية عبادتهم وكنائسهم ، وفتحت لهم أوسع أبواب العمل الحر في الزراعة والصناعة والتجارة ، فانتظموا في سلك الحرف المختلفة على قدم المساواة مع زملائهم المسلمين ، وكانوا معهم في تعاطف وود ، بل إنهم برزوا في ميدان التجارة الخارجية لصلتهم مع الأوروبيين ، وتكونت منهم طبقة بورجوازية غنية ، وتشهد بذلك سجلات المحاكم الشرعية في مختلف الحواضر العربية (١) .

(١) انظر: المجلة العربية للعلوم الإنسانية التي تصدر عن جامعة الكويت، العدد ٣١ (ص٢٦٩).

يرد الأستاذ محمد جلال كشك على تساؤل يراود بعض الشباب : لماذا نجح الأسبان في إبادة المسلمين في الأندلس في ثماني سنوات ، ونجح الصرب الذين يعملون في إبادة المسلمين في البوسنة ، بينما حكم المسلمون الأتراك صربياً أربعمائة سنة (١٤٦٣ - ١٨٨٢م) دون أن يطبقوا سياسة الإبادة نفسها ، وإذن لنجا المسلمون مما يحدث لهم ؟ قائلاً :

إن الإسلام يفقد معناه ورسالته ومبرر وجوده لو اتبع وحشية الآخرين .. صحيح أن التسامح بغير قوة تحميه هو أشبه بالعجز .. وصحيح أننا ندفع الثمن ، ولكنه ثمن الضعف وليس ثمن المبدأ الأسمى ، إن التاريخ مرصوف بضحايا دعوات الضم والنقاء العرقي .. ولكن الإنسانية عطشى لدعوة التسامح والتعايش ... ومهما طال الليل فلا بد أن تنتصر الإنسانية وتبزغ شمس الإسلام من جديد (١) .

* * *

(١) كتاب « إنهم يذبحون المسلمين » (ص ٧٠ - ٧٣) .

مقياس الوطنية :

ومن السهام الهدامة الموجهة ضد تاريخنا في مجمله - وفي سياق تقويم الدولة العثمانية بالذات - ما يجري من محاكمة هذا التاريخ باسم مذاهب سياسية محدثة كالقومية والوطنية ، ومن ذلك القول بأن مصر لم تعرف الاستقلال الوطني والحكم بيدي مصري منذ عشرات القرون إلا بعد الثورة المصرية عام (١٩٥٢م) .

ويرد على أصحاب هذا القول : بأن جميع الشعوب كانت كذلك إلى عهد قريب: انجلترا . وفرنسا، وإيطاليا ، وألمانيا ... إلخ ، ونقول لهم ما قاله «مارستون بيتس » في كتابه « الانفجار السكاني » ، وهو بصدد تقسيم البشر إلى أنواع ، ومقاييس هذا التقسيم : هل هو العنصر أو السلالة ، أو الجغرافيا ، أو الثقافة ؟ حيث يقول : (كلما أمعنا في التفكير في هذا الأمر ازداد غرابة في نظرنا ، « فالحكومة الوطنية » هي اختراع حديث العهد من الوجهة التاريخية ، ويحمل الناس أحياناً الثورة الفرنسية وما تلاها من المغامرات النابليونية وزر هذا الاختراع .

أما إيطاليا وألمانيا فلم تظهرا على المسرح كأمتين إلا في عام (١٨٧٠م) . ومما لا ريب فيه أن أمماً كثيرة مثل فرنسا وانجلترا كان لها تاريخ عريق في السيادة الوطنية على مناطق لا تكاد تختلف عن حدوده الحالية ، ولكن هذا الأمر يبدو نتيجة لسلسلة من الأحداث التاريخية والجغرافية أكثر منه ظاهرة وطنية .

ومن جهة أخرى فليست هناك دولة وطنية تطابق مجموعة عنصرية واحدة .

وهناك عدد من الأمم متجانسة السكان تقريباً من وجهة النظر العنصرية ، ولكنها لا تمثل في الحقيقة إلا شطراً صغيراً من العنصر الذي يعيش فيها ، لأن القسم الأعظم من الأشخاص الذين ينتمون إلى ذلك العنصر ينتشر ما بين الأمم الأخرى .

ولقد أصبحت الخصائص الوطنية مؤخراً من المواضيع التي يوليها علماء الأجناس البشرية كل اهتمام في دراساتهم ، ويبدو أن فكرة « الرجل الإنجليزي » و«الرجل الأمريكي » أو « الرجل الألماني » أصبحت الآن حقيقة واقعة ، لا تختلف بشيء عن فكرة وجود

عنصر خاص أو حضارة قبلية)[1] .

والمتأمل في هذه الحقائق يجد أنه من الخطأ والظلم معاً محاكمة التاريخ الإنساني السابق على هذه المفاهيم الوطنية أو العنصرية ، وبخاصة لو أدركنا بخصوص الحضارة الإسلامية أن أبناءها كانوا في مرحلة حضارية قد تجاوزت من الناحية القيمية هذه المفاهيم ، ولو عرضت عليهم لرفضوها كما رفضوا الشعوبية ، والتجزئة ، والقبلية ، والعنصرية ، استمساكاً منهم بالأفق الأسمى المفتوح أمامهم بتعاليم الإسلام، والذي يطبق مفهوماً سامياً من العالمية ينبني على الأخوة في الإسلام .

* * *

تشويه مصر في الحملة الفرنسية :

إن عملية تشويه التاريخ الإسلامي لم تقتصر على التاريخ القديم والوسيط ، وإنما انسحبت إلى التاريخ الحديث أيضاً ، فقد لقنوا المتعلمين في المدارس والجامعات أن هزيمة المماليك أمام نابليون كانت نموذجاً

(١) « الانفجار السكاني » (ص ٧٩ - ٨٠) .

مطلقاً لهزيمة التخلف أمام التقدم : ولكن لننظر إلى ما تقوله الدكتورة ليلى عنان المتخصصة في الحضارة الفرنسية رداً على هذه المزاعم : (كان سلاح الفرسان الفرنسي ضعيفاً أمام فرسان المماليك الذين يبرعون في ركوب الخيل والحرب بالسيف ، وذهب الكثير من فرسان الفرنسيين ضحية مهارتهم الفائقة كما ذهبوا ضحية مدفعية المماليك ، أي نعم : مدفعية المماليك في معركة إمبابة ، على ما قيل في كتب التاريخ المدرسي في فرنسا ، ونحن - كما تقول الدكتورة - : لن نلجأ إلى ما قاله الجبرتي ، فقد كانت كتابته صحفية ، أسهمت كمرجع ، ولكنها ليست المرجع التاريخي الموضوعي الذي يؤتمن ، فكتابته فيها من الذاتية ما يجعلنا نتعامل معها بحرص شديد . فهو - على سبيل المثال - يهتم بما كان يصيح به المارة ، وما يقال في المقاهي و« أعاجيب الزمان » .

ونجد كتابة « نقولا ترك » - والكلام ما يزال للدكتورة ليلى عنان - لنفس العصر أكثر جدية من حواديت الجبرتي ، على غزارة المعلومات التي نجدها

عنده . يؤكد نقولا ترك مـذكرات الجنرال « برانوييه » . والكابتن « مـوارييه » مـثلاً وهي تصف لنا المعـارك التي اشتركـا فيها ضـد المماليك ، وما قاساه الجـيش الفرنسي من مهارة هؤلاء الفرسان ، ونيران مدافعهم ، لنصل إلى وقائع لا بد أن تخفى رسمـياً عن القارئ الفرنسي ، لأن هذا القارئ لن يشعر بالزهو إزاء عرض ما قاساه الجيش الفـرنسي على أيدي من يـسمـونهم باحـتـقـار شـديد « الفرسان المسلمين المنقـبين » لا لشيء إلا لأن لهم كرامة الوطني ، وشجاعة المحارب ، وهي صفات ينكرها علينا الغرب لأسـباب تخص سياسـته الاستـعـمـارية ، وقراءته الخـاصـة جداً والذاتـية جـداً للتـاريخ) ، هكذا كـتـبت الدكتـورة ليلى عنان ذات الثقافـة الفرنسية والتـخصص الدقيق في الحضارة الفرنسية (١) .

* * *

كلمة عامة ضد تشويه التاريخ الإسلامي :

مهما يكن من أمـر ، فإن أحداً لا ينكر أن النظام

(١) وانظر كتابها « الحملة الفرنسـية بين الأسطورة والحقيقة » من سلسلة كتاب الهلال رقم (٥٠٠) .

الإسـلامي لـم يصل قط إلى مـرتبـة التطبيـق الكامل ، وهكذا الأمر في كل الأنظمة عند التطبيق .

على أن ذلك لا يـحـسب عـلى الإسـلام ضـد صلاحـيتـه التاريخيـة ، ولكنه يحسب له باعـتبـاره هدفاً خالداً لهذا التطبيق في سياق التاريخ .

إن سراً عظيماً من أسرار بقـاء الإسلام وصلاحيته لكل زمـان ومكان يكمن فـي أنه يعلو دائمـاً فـوق أي تطبيق ، ليظل مثلاً أعلى تسعى البشرية إلى الاقتراب منه وتجاهد في الوصول إليه .

إن أي نظام – في التطبيق – لا يجد التطبيق الأمثل الأكـمل ، حـتى هـؤلاء المبـهـورون بنظم الغـرب لا يجسرون على القول بأنها نظم شاهدت اكتمال التطبيق، سواء النظم الديموقراطية ، أو الاشتراكية ، أو العلمانية . يقـول « روچيـه جارودي » الفـيلسـوف الفـرنسي الذي دخل في الإسـلام : (لقـد أطلق مـؤرخـونـا بحق على الأعـاصيـر العـاصفـة – مـثلاً – التي بناهـا تيمـورلنك بسبـعمائة ألف جـمجمـة بعد احـتلاله أصفـهان : اسم الغزوات البربرية .

ولكن مما يدعو إلى العجب أن هذه التسمية تتغير حينما يقوم الأوروبيون بمثل هذه الغزوات ، فماذا نقول إذن عن إبادة الهنود الحمر في أمريكا على يد الفاتحين الأوروبيين أصحاب المدافع ، (وقد بلغت أكثر من مائة وثلاثين مليوناً حسب تقديرات المفكر الأمريكي الشهير « نعوم تشومسكي » ؟) [1] .

وماذا نقول عن تخريب أفريقيا بانتزاع عشرة ملايين إلى عشرين من سكانها السود، وهذا يعني أن عدد الضحايا بلغ مائة مليون إلى مائتين ، إذ كان أسر كل أسير يكلف عشرة أفراد ؟ وماذا نقول عن مذابح آسيا وحرب الأفيون والمجاعات التي فتكت بملايين الهنود بفضل الاستعمار وفرض الضرائب ؟ وماذا نرى في ضحايا الحرب العالمية الأولى والثانية ؟ وماذا نرى في حرب فيتنام ؟

وماذا نرى في تشريد الشعب الفلسطيني ليحل محله شذاذ الآفاق من اليهود والصهاينة ؟

---

(١) نعيم تشومسكي في كتابه « ماذا يريد العم سام ؟ » ترجمة عادل المعلم .

وماذا نسمى النظام العالمي للسيطرة الغربية وقد أنفق - في عام واحد - هو عام (١٩٨٠) - أربعمائة وخمسين ملياراً من الدولارات على التسليح ؟ وتسبب في العام نفسه في موت خمسين مليوناً من البشر في العالم بسبب المجاعة ولعبة المبادلات التجارية الظالمة ؟

وهكذا يعتبر الغرب - كما يقول « روچيه جارودي » - : إلى أبد الآبدين أكبر مجرم في التاريخ .

ولذلك فإننا نقول للمسلمين بعامة - والدعاة منهم بخاصة - : حذار ، حذار من الوقوع في الفخ ، حذار من مسايرة النقد الأعمى للتاريخ الإسلامي . إن تاريخنا هو ذاتنا في الماضي ، وهو قلعتنا في الحاضر ، وهو زادنا نحو المستقبل . وإن من حقنا أن ننظر إلى تاريخنا بعين الفاحص ، ونقد المحقق ، ووعي المتبصر ، ولكن من واجبنا أن تكون عيننا الأخرى على مؤامرات الغزو الثقافي ، ومن أهم أهدافه اقتلاعنا من جذورنا الإسلامية عن طريق تشويه تاريخنا الإسلامي .

وإذا كان لأحد أن يتساءل : لماذا ينكر الجاحدون مجد الإسلام وقوة نظامه ، أو يتعمدون انتقاء الروايات

الضعيفة المتهافتة من كتب الأسمار والحكايات .

ويتركون الروايات الدقيقة الصحيحة التي خدمها رجال الحديث - مثلاً - على أعلى مستويات النقد ؟ فالجواب على ذلك بسيط : إنها العمالة في عملية الغزو الثقافي للإسلام ، ولكن وبالإضافة لذلك - فإن الأمر كما يقول الأمير شكيب أرسلان : (هذا الميل في النفس إلى إنكار الإنسان لماضيه وطعن آبائه بأنهم كانوا سافلين وأنه يبرأ منهم .. لا يصدر إلا عن الشخص الخسيس ، وضيع النفس ، أو عن الذي يشعر بأنه في وسط قومه دنيء الأصل ، فيسعى هو في إنكار أمته بأسرها ، لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ، ليس له نصيب من تلك الأصالة) .

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

تجميل العدو

تجميل العدو

أما الاتجاه الثالث : فيقوم على تجميل تاريخ الأعداء في علاقتهم معنا أو تخفيف مدى القبح فيهم ، حيث يجري تفسير مواقفهم على وجوه شتى : تفسيرات حضارية، أو اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو تطورية ، أو عرقية ، أو مصلحية ، وفي جميع الأحوال يظهر الحرص على كتمان التفسير الديني : والهدف من ذلك كما سبق أن قلنا : إخراج الإسلام من الساحة .

وهذا جميعه يتم تعمية المستقبل على المسلمين يجعلهم يجهلون : من العدو ؟ فإذا جهلوا من عدوهم جهلوا من صديقهم ، فوقعوا في مصادقة العدو تارة . ثم وقعوا في عداوة الأصدقاء تارة أخرى .

فإذا ذهبنا نستعرض كيف تم تجميل وجه الأعداء فإننا نتعرض هنا للموجات : الصليبية ، والاستعمارية ، والصهيونية .

الدوافع الدينية في الحملات الصليبية :

يقول الدكتور قاسم عبده[1] : (لقد استقر في

(١) في كتابه « ماهية الحروب الصليبية » تأليف الدكتور قاسم عبده ، العدد (١٤٥) من سلسلة عالم المعرفة - الكويت (ص ١٣) .

الوجدان الشعبي الأوروبي والأمريكي أن الحملة الصليبية لا بد أنها كانت بالضرورة حملة نبيلة القصد والهدف ، بل إننا كثيراً ما رأينا قادة الرأي والساسة الغربيين يستخدمون مصطلح « الحملة الصليبية » هذا المفهوم النبيل والخير والعادل) .

ومن الغريب أن الدكتور قاسم عبده يرى أن تجريد هذه الحملات من هذا التزويق يكون بتجريدها من وصف « الصليبية » الذي وقعنا فيه عن طريق شباك الترجمة عن الأوروبيين ، وأن الأولى بنا أن نعود إلى تسميتها بما سماها به المؤرخون العرب في بداية الأمر ، يقول سيادته (ص ١٥) : (ووجه الخطورة في هذا المصطلح عندما يستعمل في اللغة العربية . فإنه يوحي بأن الحركة كانت ترتبط بالصليب رمز المسيحية، ولا تقدمها في إطارها الصحيح !!! باعتبارها مغامرة استيطانية) .

ومع تقديرنا لهدف سيادته المعلن وهو تجريد تلك الحملات من زيف النبالة والانتساب للدين ، فإننا نختلف معه في الوسيلة التي تؤدي إلى عكس ما أراد :

إذ في هذه الوسيلة دفاع عن الصليبية بوجه أو بآخر ، وهو تزويق آخر بوجه آخر ، ونحن نرى أن هذه الحملات إن أنكرنا عليها أن يكون الصليب هدفاً - جدلاً - فإن أحداً لا يمكن أن ينكر أنه كان أداة ، وعود على بدء ، ففي الحالين يكون الصليب قد قام بالدور الأساسي في هذه الحروب وفقاً لمعتقدات أصحابه ، ومهما قلنا بأن الصليب لم يكن هدفاً ، وإنما كان الاستيطان . فهذا لا ينفي أن الاستيطان الذي تحدث عنه سيادته هو استيطان الصليب .

وهذا ما نستند إليه فيما يقول الدكتور قاسم عبده نفسه : (إن الحملة الصليبية كانت التطور المنطقي للحج المسيحي إلى فلسطين .. وإن أوروبا التي بدأت تشعر بقوتها رفضت بقاء أرض المسيح بأيدي المسلمين الذين صورتهم الدعاية الكنسية في صورة الكفار المتوحشين . يقول البابا أربان الثاني من أكبر الدعاة إلى الحملة الصليبية الأولى عن المسلمين في سيل من الأكاذيب : «إنهم جنس غريب على الرب تماماً ، قد غزا أرض أولئك المسيحيين ، وأخضع الناس بالسيف والتدمير

والحريق ، كما حمل بعضهم أسرى إلى بلاده ، وذبح البعض بوحشية ، وسوى الكنائس بالأرض، وأجروا عمليات الختان للمسيحيين ، وصبوا دماء الختان على مذابح الكنائس أو في أواني التعميد ») .

ثم يقول الدكتور قاسم:(كانت الفكرة التي ملكت عقول أبناء الغرب الأوروبي في أخريات القرن الحادي عشر الميلادي هي فكرة تخليص الأرض المقدسة من المسلمين ، وقد أدى هذا بالضرورة إلى إبراز أهمية القيام بحملة مسلحة - وهي الحملة الصليبية - لتحقيق هذا الهدف ، ولقد كانت الفكرة الحاسمة في كليرمون عام (١٠٩٥) هي عسكرة الحج ، وإضفاء طابع القداسة على هذه الممارسة . كان الصليبي في حقيقته حاجاً من طراز خاص ، إذ كان يتمتع بامتياز حمل السلاح ، وكان السيف الذي يحمله الصليبي مباركاً من الكنيسة باعتباره جندياً في جيش المسيح، كما كانت سائر مهمات الحاج هذا تحظى بمباركة الكنيسة ، ثم توارت كلمة حاج التي استخدمها المؤرخون الذين عاصروا الحملة الأولى رويداً رويداً ، وأخذت تحل محلها كلمة « جندي المسيح » ثم

« صليبي » ، وكان أهم عناصر الحملة المقدسة التي دعا إليها البابا يتمثل في مفهوم « الغفران » الذي كان هو العنصر الأهم في عيون الفرسان ، والعامة .

لقد خطب البابا أربان الثاني في كليرمون قائلاً : «إنني أخاطب الحاضرين ، وأعلن لأولئك الغائبين - فضلاً عن أن المسيح يأمر بهذا - أنه سوف يتم غفران ذنوب كل أولئك الذاهبين إلى هناك إذا ما انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية ، سواء في مسيرتهم على الأرض أو أثناء عبورهم البحر ، أو في خضم قتالهم ضد الوثنيين !! وهذا الغفران أمنحه لكل من يذهب بمقتضى السلطة التي أعطاني الرب إياها » . ثم تحول هذا الغفران الجزئي في الحملة الأولى إلى غفران كامل في الحملة الثانية -(١١٤٥ - ١١٤٩م) - ويؤدي هذا الغفران - في زعمهم - إلى غفران جميع الخطايا والإعفاء من التوبة والتكفير) .

ومن قراءة نصوص الروايات التي أوردها المؤرخون حول خطبة البابا أربان الثاني في كليرمون ، يتبين : أنه كان يدعو إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين

اعتماداً منه على نصوص وردت في الأناجيل المسيحية ، وأهمها نص من إنجيل لوقا يقول : « ومن لا يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً » .

وأنه كان يدعو إلى هذه الحملة المسلحة باسم الرب بوصفه نائباً عنه في الأرض ، يقول البابا : (إنني لست أنا ولكن الرب هو الذي يحثكم باعتباركم وزراء المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات) (١) ، ثم برر البابا هذه الحرب بأن هدفها أن تحرر الكنيسة الشرقية من ربقة المسلمين ، وأن تخلص الأرض المقدسة من سيطرتهم، هذه الأرض التي وصفها الكتاب المقدس بأنها تفيض باللبن والعسل ، ووصفها أربان الثاني بأنها ميراث المسيح .

ثم أشار البابا إلى منح الغفران الجزئي لكل من سيشارك في هذه الحملة ، سواء مات في الطريق إلى الأرض المقدسة ، أو قتل في الحرب ضد المسلمين .

وقد لقيت هذه الخطبة استجابة فورية هائلة من

(١) كتاب « ماهية الحروب الصليبية » للدكتور قاسم عبده (ص ١١٠ - ١١١) .

الحـاضرين ، وتجسدت هذه الحـمـاسة في عـبارة أخـذ يرددها جـمـهور الحـاضـرين ، مـعناها (الرب يريد) ، وسارع الكثـيرون إلى البابـا يقسمـون أمامه على القـيام بالرحلة ، كما أخذ كثيـرون يخيطون صلباناً من القماش على ستــراتهم رمـزاً لأخـذهم شــارة الصليب . وتم الاعتـراف بجميع الفـرسان الذين أقسـموا على الذهاب جنوداً في جيش الرب ، وصار الصليب شارة كل فارس في كل حملة صليبية .

وبعـد خطبـة البابا قـام برنارد مـقدم ديـر كليرفـو بشرح ما قاله البـابا قائلاً : (أيها الجندي الباسل يا رجل الحرب : الآن لديك قـضيـة تجعلك تقاتـل دون أن يحيق الخطر بروحك ، قضـية النصر فـيها مجـيد ، والموت في سـبيلهـا مكسب ، إن باسـتطاعتـي أن أقدم لك صـفقـة مـحتـرمة ، فـلا تجعل هذه الفـرصة تفـوتك ، خذ شـارة الصليب وفي الحـال ستنال الـغفـران على كل خطاياك . ولن يكلفك كثيراً أن تشـتري مكافأة السماء إذا ارتديت شارة الصليب في تواضع) (١) .

(١) كتاب « ماهية الحروب الصليبية » للدكتور قاسم عبده (ص ٣٠) .

ثم حدث تطور جديد في منح الغفران ، فقد صارت البابوية تمنحه لمن يرسلون المحاربين بدلاً منهم ، ولمن يساهمون بأموالهم في تمويل إحدى الحملات ، عوضاً عن المشاركين بأنفسهم .

يقول أحد البابوات في عام (١٢٤٦م) : (ونحن نمنح الغفران لكل أولئك الذين أخذوا على عاتقهم إنجاز هذا العمل شخصياً ، وعلى نفقتهم كما نمنح الغفران لأولئك الذين لا يشاركون في الحملة شخصياً ، ولكنهم يرسلون المحاربين اللائقين على نفقتهم حسب إمكاناتهم ، ونمنحه أيضاً للذين يقومون بهذا العمل على نفقة الآخرين ، ونحن نرغب في أن يتمتعوا بكل الحصانة والامتيازات التي نمنحها في المجمع الكنسي العام ، لمن يساعدون الأرض المقدسة) (١) .

حتى الأطفال كان لهم دور : ففي أوائل القرن الثالث عشر خرجت حملة عجيبة من أوروبا الغربية عرفت باسم « صليبية الأطفال » بقيادة صبي فرنسي في الثانية عشرة من عمره اسمه « استيفن » ، زعم أنه تلقى

---

(١) كتاب « ماهية الحروب الصليبية » للدكتور قاسم عبده (ص ٣٣) .

خطاباً من المسيح يخبره بأن العناية الإلهية اختارته لقيادة حملة من الأطفال الأبرياء الذين سوف يستردون - في زعمه - سدينة القدس ، بعد أن فشل الملوك والأمراء والبابا وغيرهم في استعادتها بسبب ذنوبهم ، وخرج معه بضع مئات من الأطفال من باريس وغيرها من أقاليم فرنسا ، وانضم إليها عدد من صغار القساوسة ، وسار موكب حملة الأطفال الصليبية حتى مرسيليا في انتظار أن ينشق البحر أمامهم في معجزة مثل تلك التي حدثت لموسى عليه السلام ، ثم جاءت سفن نقلت عدداً منهم إلى جهة مجهولة .

ويبدو أن أطفال ألمانيا أحسوا بالغيرة حين وصلت أنباء حملة « استيفن » إلى حوض الراين ، فخرجت من ألمانيا حملة أخرى بقيادة صبي اسمه « نيقولا » من إحدى قرى إقليم الراين ، وتخلف بعضهم في الطريق . أما الذين سافروا فلم يعرف أحد ماذا جرى لهم على وجه اليقين (١) . يقول الدكتور قاسم عبده : (إنه إذا كان الفارس الإقطاعي في غرب أوروبا في القرن الحادي

(١) كتاب « ماهية الحروب الصليبية » للدكتور قاسم عبده (ص ١٥٠-١٥١) .

عشر متوحشاً همجياً مولعاً باللذات الحسية ، لكنه كان في الوقت نفسه متديناً على طريقته ، فقد كان يتقبل تعاليم الكنيسة بلا مناقشة ، وكان كثير منهم يؤدون الطقوس والشعائر الكاثوليكية .. وكان من عادتهم منح الهبات السخية للأديرة) (١) .

وفي مكة المكرمة في أيام صلاح الدين ، وبعد أن بسط سلطانه على منطقة تمتد من النيل إلى الفرات قام الصليبيون بعدة غارات عبر شبه جزيرة سيناء ، ووصلت قواتهم حتى بحيرات البردويل في منطقة السويس ، وشنوا غارات على تيماء في شبه الجزيرة العربية ، وحاول أرناط أمير الكرك أن يقتحم البحر الأحمر ويغزو مكة والمدينة ، وهاجم بعض مواني مصر والحجاز لولا أن الأسطول المصري سحق أسطوله تماماً (٢).

وبعد أن عرفنا ماذا حدث في تحريك النفوس باسم الصليب لننظر بعد ذلك ماذا حدث في تحريك الرءوس والرقاب عن أكتافها باسم الصليب أيضاً :

---

(١) كتاب « ماهية الحروب الصليبية » (ص ٧٢) .
(٢) كتاب « ماهية الحروب الصليبية » (ص ١٤٣) .

بعد أن غزا « نقفور » الحمدانيين عام (٩٦٤م) استعد لغزو جديد ، فأرسل إنذاراً إلى الخليفة العباسي في بغداد يهدده بالويل والثبور ، وينذره بأن الجيوش البيزنطية لن تلبث أن تستولى على بلاد العراق والشام ومصر ، وأنه من الخير للخليفة أن ينسحب إلى بلاد الحجاز ، ويترك تلك البلاد لأصحابها !! - هكذا في دورة مبكرة من منطق الاستعمار الذي سيظهر في القرن التاسع عشر من بعد في المنطقة - القدامى البيزنطيين ، وكان إنذاره يفيض بالروح الصليبية ، إذ ضمنه - كما يقول الدكتور سعيد عاشور - عبارات دينية ، وتهديد صريح بهدم الكعبة ، ونشر المسيحية ، في الشرق والغرب جميعاً) (١) .

وفي الهجوم الصليبي على بيت المقدس الذي يبدأ ليلة (١٤ يوليو ١٠٩٩م) ، واشتد في صباح اليوم التالي لم يسع الجند المسلمين المدافعين عن بيت المقدس سوى الفرار للاحتماء بالمسجد الأقصى ، فتبعهم

(١) « الحركة الصليبية » للأستاذ الدكتور سعيد عاشور ، نشر مكتبة الأنجلو ، الجزء الأول (ص ٦٠ - ٦١) .

الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة ، وكما يقول أحد مؤرخيهم:(كان جنودنا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين) (١) ، ولم يترك الصليبيون مسلماً في الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه واستباحوا دمه ، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل ، وأجهزوا على كل من احتمى بالمسجد الأقصى ، وعددهم أكثر من سبعين ألفاً ، منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم ، وعبَّادهم ، وزهادهم . وقد ذكر هذا العدد ابن الأثير من المسلمين . وابن العربي الملطي من المسيحيين ، الذي قال ما نصه: (ولبث الفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين . وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً) .

وذكر وليم الصوري أن بيت المقدس شهدت عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة ، حتى أصبح البلد : مخاضة واسعة من دماء المسلمين ، أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم . وكذلك ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك

---

(١) « الحركة الصليبية » للأستاذ الدكتور سعيد عاشور ، نشر مكتبة الأنجلو ، الجزء الأول (ص ١/ ٢٤٣) .

الأحداث أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي أحدثها الصليبيون ، لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا بصعوبة بالغة ، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه ، ولم يكن اليهود أحسن حالاً من المسلمين ، (إذ جمع اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم)[1].

وعندما استولى الصليبيون على قيسارية في (١٧ مايو ١١٠١م) أحدثوا كما تشير المراجع الغربية نفسها مذبحة وحشية قتلوا فيها كثيراً من أهلها الأبرياء ، وعندما احتمى بعض أهلها بجامع المدينة لاحقهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم ، دون أن يفرقوا بين الرجال والنساء حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين) [2] .

ولقد كانت محاولة غزو مصر في الحملة الصليبية الخامسة عام (١٢١٨م) ، والحملة السابعة التي

---

(١) « الحركة الصليبية » للأستاذ الدكتور سعيد عاشور ، نشر مكتبة الأنجلو ، الجزء الأول (ص ٢٤٤) .
(٢) المصدر السابق (٢٩٤)

تمت عام (١٢٤٩م) بقيادة لويس التاسع .. كلتيهما تمتا باعتبارهما محاولة من جانب البابوية الكاثوليكية للدفاع عن بقايا الوجود الصليبي في فلسطين، والذي كان قد تقلص على يد صلاح الدين، في عام (١١٨٧م).

وفي الأندلس - وفي جو الحملات الصليبية في الشرق - دعت البابوية فرسانها إلى القتال ضد مسلمي الأندلس، تماماً كالاشتراك في الحملة الصليبية في فلسطين، يقول البابا في وثيقة صدرت عنه عام (١٠٩٩م) موجهة إلى بعض أمراء الأسبان: «إذا كان الفرسان في إقليم آخر قد قرروا جميعاً الذهاب لمساعدة الكنيسة الآسيوية (!!) وأن يحرروا إخوانهم من طغيان المسلمين (!!)، فإنه ينبغي عليكم أيضاً وبتشجيع منا أن تبذلوا قصارى جهدكم، ولا ينبغي لأحد أن يشك في أن خطاياه سوف تغتفر إذا مات في هذه الحملة، حباً في الرب، وفي إخوانه، وأنه سوف ينال بالتأكيد نصيبه في الحياة الخالدة بفضل رحمة الرب الواسعة. ولذا فإنه إذا كان أحدكم قد قرر الذهاب إلى آسيا، فعليه أن يفي بقسمه هنا، ذلك لأنه ليس من الخير في شيء أن ننقذ

المسيحيين المسلمين في مكان لكي نعرضهم لطغيان في مكان آخر)[1] .

وأخيراً يصرح الدكتور قاسم عبده تحت ضغط الحقائق التي ينقلها من مصادرها .. بالوجه الصليبي الكنسي الكاثوليكي لهذه الحروب ، فيقول : (الحقيقة التي لا يرقى إليها الشك أن الحركة الصليبية لم تكن لترى النور إلا بعد أن مهدت الكنيسة الكاثوليكية الأرض بصياغة أيديولوچية الحرب المقدسة)[2] ، وكما يقول عن الفارس الإقطاعي في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر المشارك في تلك الحروب:(كان متديناً على طريقته ، فقد كان يتقبل تعاليم الكنيسة بغير مناقشة) .

إنه مذهب الإرجاء المسيحي : لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة !!

* * *

الدوافع الدينية وراء الحملة الفرنسية على مصر :

منذ البداية كانت الحملة الفرنسية التي نهض

---

(١) ماهية الحروب الصليبية » للدكتور قاسم عبده (ص ٤٤)

(٢) « ماهية الحروب الصليبية » (ص ٤٥ ، ٧٢) .

العلمانيون بيننا لتبييض وجهها قائمة على أسباب معادية للإسلام ، ومن أجل إقامة وطن قومي لليهود ، وقد أعلن نابليون ذلك في ندائه الذي وجهه لليهود أثناء حصاره لعكا عام (١٧٩٩م) ، ليؤيدوه في إقامة الإمبراطورية الفرنسية الشرقية ، مقابل أن يعيد إليهم ملك إسرائيل .

وقامت حملة نابليون على مصر على نظرة شديدة الكراهية والتشويه والعداء للإسلام بالذات . يقول أحد كتاب الحملة « فيفان ديفون » في كتابه « رحلة في مصر السفلى والعليا » : (الإسلام دين مشئوم ، حيث إن المبادئ الفاسدة إضافة إلى العقيدة ، فإنها تحصر الإنسان بين البطولة أو الفسوق ..) .

وتقول الدكتورة زينب عبد العزيز : (لم يتورع جلادو هذه الحملة الذين زعموا أن مجيئهم لحماية وتحرير المصريين عن قتل المشايخ ، ليس انتقاماً وترويعا فحسب ، ولكن لوأد النهضة الإسلامية التي كانت في طريقها إلى النور ، إذ كان يقتل في القاهرة وحدها كل يوم خمسة أو ستة ، ويطاف برءوسهم في شوارع القاهرة) .

ولقد كان التنصير من بعض أهداف هذه الحملة كما كشف أحد مؤرخيها الفرنسيين عن ذلك في اتصال تم بين نابليون والفاتيكان في سياق الإعداد لهذه الحملة .

وكتب أحد الذين مهدوا للحملة وخططوا لها عام (١٧٨٨) يقول : (لكي تستقر في مصر لا بد لك من شن ثلاثة حروب : الأولى ضد انجلترا ، والثانية ضد الباب العالي ، والثالثة - وهي أصعبهم جميعاً - ضد المسلمين الذين يكونون غالبية شعب ذلك البلد) .

وكانت الاستراتيجية الفرنسية في غزوها لمصر - كما جاءت في الوثائق الفرنسية - تقوم على اعتبار (أن مصر كانت سابقاً مقاطعة من مقاطعات الجمهورية الرومانية ، ويجب أن تصبح مقاطعة للجمهورية الفرنسية ، لقد كان غزو الرومان يمثل مرحلة الاضمحلال لهذا البلد الجميل ، وسيكون الغزو الفرنسي مرحلة ازدهاره ، فلقد قام الرومان بنهب مصر من أيدي ملوك اشتهروا بالفنون والعلوم ، والفرنسيون سيستولون عليها من أيدي أبشع طغاة وجدوا على

الإطلاق !!)[1] .

وكان الاستعمار المسيحي الاستيطاني من ضمن الخطط التي أعدت للحملة ، وقد جاء ذلك في التقرير الذي أعده « سان ديدييه » أحد كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية ، وقدمه إلى وزير الحربية الفرنسية عام (١٧٧٦م) في دراسة مطلوبة عن الإعداد لحملة مصر يقول : (ومن السهل استدعاء كافة الكاثوليك الشرقيين الذين يئنون تحت طغيان المسلمين ، من فلسطين وسوريا ، وديار بكر ، فإذا ما منحناهم حياة ناعمة مطمئنة وبعض الأراضي سيتهافتون جماعات للاستقرار بها ، كما أن مصلحتهم سوف تربطهم بالفرنسيين) ، وجاء في التقرير أيضاً : (ومن الأرجح أن نقوم - بعد احتلال مصر - بتكوين فرقة بوليس من مسيحي البلد وأولئك الذين سيفدون إليه للإقامة قادمين من فلسطين وسوريا ، وسنستخدمهم بجدارة في البوليس، بل وضد العرب ، إذا ما فكروا في الثورة في

---

(١) انظر : كتاب « مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين » للدكتورة زينب عبد العزيز أستاذ الحضارة بكلية الآداب بجامعة المنوفية ، نشر عام (١٩٩٨)، (ص ٣٥ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٦).

مصر ضد الفرنسيين)[1] .

ولقد كانت وحشية الفرنسيين في مواجهة مقاومة المصريين وصمة عار في جبين ما يسمى الحضارة الأوروبية ، ومن ذلك - كمثال - ما جاء في مذكرات الجنرال «برنييه» رئيس أركان الحملة الفرنسية ، وهو يتحدث عما حدث لإحدى قرى الصعيد إذ يقول : (أصبحت قرية بني عدي أكواماً من الخرائب ، وتكدس القتلى في شوارعها ، ولم تقع مجزرة أشد هولاً مما حل ببني عدي ، وقدر الجنرال « دافوا » عدد القتلى من الأهالي بألفي قتيل ، ويقدرهم « ديزيه » في تقريره إلى نابليون بنحو ثلاثة آلاف)[2] ، وذكر أحد أهم رجال الحملة في فريق العلماء واسمه « فيفان دينون » (١٧٤٧ - ١٨٢٥) عن هذه القرية : (أنه ما هي إلا لحظات حتى قام الجنود بنهب القرية التي سرعان ما اختفت . وكان من ضمن الغنائم العديد من النساء والبنات والجواري !!)[3] .

---

(١) كتاب « مائتا عام » (ص ١٢٥ ، ١٣٦ - ١٣٧) .
(٢) كتاب « مائتا عام » ... السابق (ص ٣١) .
(٣) كتاب « مائتا عام » (ص ١٠٥) .

واستندت حركة نابليون في مصر إلى النفاق الغليظ إلى حد ادعاء الدخول في الإسلام ، وقد حدث ذات يوم أن شكا نابليون من المقاومة المصرية الإسلامية ، بالرغم من تظاهره بتقدير الإسلام ودرايته بالقرآن ! ! وطلب من بعض مشايخ الأزهر قائلاً : (إني بحاجة إلى فتوى من جامع الأزهر تأمر الشعب أن يؤدي قسم الولاء) وأصيب المشايخ بالذهول والذعر . ثم سرعان ما وجدوا مخرجاً : فبما أنه شديد الإعجاب بهذا القدر بمحمد - ﷺ - ويرجع نجاحاته إلى حماية الله للإسلام على يديه ، فلماذا لا يسلم هو وجيشه بأسره ؟! ، ولكي لا يرد نابليون بالرفض اعتذر عن إمكانية هذا الإعلان بالختان ، والنبيذ ، واحتياج الجيش إلى سنتين لتحقيق ذلك؟! (١) .

هذه هي الحملة الفرنسية التي يجري تجميلها بدعوى ما يزعم من أهداف علمية كانت لها ، وتفضح الدكتورة زينب عبد العزيز هذه المحاولات إذ تقول : إن الهدف المعلن الصريح من أجل إنشاء لجنة العلوم

(١) كتاب « مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين » (ص ٧٥ - ٧٧) .

والفنون التي صاحبت الحملة هو : (مساعدة الجيش ووضع العلم في خدمة الحرب ، والحكومة الفرنسية ، والعمل على تنظيم وإدارة البلد الذي تم استعماره - وفقاً لقرار نابليون بإنشاء المعهد المصري في (٢٢/٨/١٧٩٨) - واستخدام الحرب لإثراء الميراث العلمي والفني لفرنسا ، وتغيير عادات وتقاليد المصريين وفرض نمط الحياة الغربية عليهم ، وتكوين أتباع وعملاء لفرنسا ممن يقبل من المواطنين ومن الطلبة الذين يبعثون إلى فرنسا ، وسرقة الآثار والمخطوطات والنفائس لإثراء متاحف فرنسا ومكتباتها) .

وتقترح الدكتورة زينب عبد العزيز : (بدلاً من الشعارات البراقة التي تتشدق بها فرنسا لإغراقنا في ضياع جديد - أي بمناسبة ما يقال عن الدعوة للاحتفال المشترك بذكرى الحملة ! - فليقم علماؤها ومؤرخوها بحصر آلاف القتلى المصريين والفلسطينيين ، وليحصوا عدد المدن والقرى والآثار الإسلامية التي هدموها وأحرقوها، وليحصوا عدد الآثار المصرية والقبطية والإسلامية ، وكل المخطوطات والنفائس التي نهبوها

وأثروا بها متاحفهم ومكتباتهم ، وليحسبوا المبالغ الطائلة التي جمعوها غدراً وخداعاً ، لا من الضرائب ولا من التلاعب في حسابات عائد شركة قناة السويس قبل تأميمها ، وإنما بالإضافة لكل ما تقدم : الدخل الذي تحصل عليه فرنسا حتى الآن من الآثار التي سرقوها علناً وفي الخفاء) [1] .

أما إن أصر عملاء فرنسا - المبيِّضين - للثقافة الفرنسية بالرغم من هذه الوقائع والحقائق التاريخية على أن الحملة كانت من أجل التنوير فلندعُ فرنسا إلى مشاركتنا احتفالاً بغزو عبد الرحمن الغافقي لفرنسا ، فقد كان من أجل تنويرها تنويراً حقيقياً.

❊ ❊ ❊

الدوافع الدينية وراء تدمير العراق :

يقول الدكتور محمد مورو في جريدة العرب الصادرة بلندن بعد الضربة التي وجهت للعراق من أمريكا وانجلترا في رمضان (١٤١٩ هـ) متسائلاً عن

(١) كتابها « مائتا عام » (ص ١٦٦ - ١٦٩) .

السبب الحقيقي وراءها ، وبعد أن فند جملة من الأسباب التي تتداولها الأقلام :

إننا أمام حرب صليبية علينا أن نواجه أنفسنا بها . ولو كانت مرة شديدة المرارة ، وحتى لو كان ثمن الاعتراف بها باهظاً ، بدلاً من أن نخدع أنفسنا ونسير وراء الوهم، فندفع ثمناً أفدح مادياً وأقسى معنوياً .

إن المسلمين سوف يتعرضون لعدوان غربي أمريكي صهيوني سواء واجهناهم،أو استسلمنا لهم ، أو حتى قبلنا العتبات والأقدام ، ومن الأفضل أن ندفع الثمن واثقين وواعين مع الاحتفاظ بكرامتنا بدلاً من أن ندفعه- أيضاً - راكعين مهدوري الكرامة غائبي الوعي .

إن الحملة الصليبية الأولى كانت عام (١٠٩٨م) واستمرت مائتي عام ، ثم رحلت، والثانية بدأت عام (١٧٩٨م) وهي رحلة الاستعمار التي انتهت بحرب تحرير وطنية وحركات مناهضة ، أما الحملة الثالثة والتي بدأت بدخول القوات الأمريكية والغربية إلى الخليج عام (١٩٩٠م) (١) واستمرت حتى الآن ، فإنها تحمل سمات

---

(٢) نختلف مع الكاتب في هذه النقطة ، حيث ينبغي أن تحدد الحملة الثالثة بقيام دولة إسرائيل عام (١٩٤٨م) .

محددة بزعم حماية الجيران ، وحماية المصالح الحيوية ، وغيرها من المصطلحات ، وسوف تمارس عدوانها علينا بوسائل أكثر تقدماً ، وميزان القوى مختل تماماً لصالح الغرب ، في هذه الحملة . والعدوان الأخير على العراق كان أحد تجليات تلك الحملة الصليبية ، ولا يعني هذا أنها سوف تقتصر على العراق ، بل غداً بالضرورة سوف تطول سوريا ، ثم إيران ، ثم مصر ، وليبيا ، والسودان ... إلخ ، وتستهدف أمتنا بالكامل .

ولقد مهر الجندي الأمريكي هذه الحرب الصليبية بتوقيعه فيما نقلته وكالات الأنباء بالصوت والصورة أن أحد الطيارين كتب فوق الصاروخ الذي حملته طائرته والذي ألقاه على شعب العراق « هذه هدية رمضان » ، وهكذا كشف هذا الطيار بصدق وبساطة - كما يقول الدكتور محمد مورو - عما حاول كلينتون أن يخفيه : أنها الحرب الصليبية ، وهذه الحرب الصليبية لا تحتاج لسبب حقيقي أو مزيف ، بل تحتاج فقط إلى ذرائع . وحقيقة أننا أمام حرب صليبية أمر لا ينبغي أن يغيب عن بالنا ، ذلك لأنه إن غاب عن بالنا فسوف نبحث بلا

طائل عن سبب لهذا التصرف الغربي أو ذاك ، فلا نجد ، وبالتالي لا يمكن أن نفهم سياسة الغرب نحونا ، وبالتالي أيضاً لا يمكن رسم سياسة صحيحة تجاه الغرب والعالم، والثمن سوف يكون فادحاً .

ولم يذهب الدكتور مورو بعيداً ، فلقد كان الثمن فادحاً وسوف يكون ، بدءاً من الضربات التي وجهها الغرب لكل من محمد علي ، والشريف حسين ، وسعد زغلول ، وفاروق ، وجمال عبد الناصر ، وأنور السادات، وصدام حسين ، ولقد أبدى هؤلاء جميعاً في فترة من نفوذهم رغبة أصيلة صادقة في التعاون مع الغرب ، بل أبدى بعضهم استعداده الكامل لكي يكون شرطي المنطقة له ، أو ليضمن مصالحه ضماناً كاملاً ، فلم يعد منهم بغير خفي حنين وضربة فوق الرأس والقلب وخراباً للديار . وما ذلك إلا لأن الفكر السياسي لهؤلاء جميعاً كان يتنكر تماماً لتفسير عداء الغرب لنا تفسيراً دينياً ، حتى جاء الطيار الأمريكي مندوب كلينتون ليكتبها على صاروخ شديد الصراخ علهم يسمعون ، علهم يسمعون لصوت الصاروخ الأمريكي،

ويحررون عقولهم من رواد العلمانية الذين لا يفتقدون تفسيراً آخر ، من نحو هذا تصرف أحمق لجندي مفرد .. أو ما شابه ، وهو قول لا تنفتح له غير صدور ساذجة أو متآمرة ، فالجندي في المعركة لا يسمح له بشيء من مثل هذا الهول ، أو بأن يتحرك - ولا يسمح له بأن يتحرك - بعيداً عن عقيدة قتالية تم تزويده بها طوال ساعات التدريب ، وهو على أية حال يعبر تعبيراً صادقاً عن حال شعب يواصل تاريخه ، وبلغ عدد المنتمين فيه للعقيدة الأصولية المسيحية الصهيونية أكثر من ثمانين مليون شخص ، على رأسهم رؤساء الجمهورية من أمثال «كارتر » و« ريجان » و«بوش » ، ورجال البيت الأبيض.

* * *

الدوافع الدينية وراء الحركة الاستعمارية في الشام :

وماذا قال اللورد اللنبي في حملته على القدس أثناء الحرب العالمية الأولى : (اليوم انتهت الحروب الصليبية) ، وهنأه آنذاك وزير الخارجية لويد چورج

لإحرازه النصر في آخر حملة من الحملات الصليبية ، والتي سماها لويد جورج (الحرب الصليبية الثامنة) .

والجنرال غورو الفرنسي عندما تغلب على جيش المسلمين في ميسلون خارج دمشق في العصر الحديث توجه فوراً إلى قبر صلاح الدين الأيوبي عند الجامع الكردي ، وركله بقدمه وقال له : (ها قد عدنا يا صلاح الدين) .

أما ما حدث لفلسطين فله حديث خاص .

* * *

الدوافع الدينية في الحركة الاستعمارية في المغرب :

يقول قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر أيام غزو فرنسا لها واسمه «هنري لي » ، وهو مؤرخ معروف في تقرير مطول رفعه بتاريخ (١٥/ ٧/ ١٨٣٠) لوزير خارجيته بعد عشرة أيام من الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر : (إني لا أذكر أبداً أنني شعرت في حياتي بمثل ذلك الفخر والزهو الذي غامرني عندما وقع بصري

للمـرة الأولى من شرفـة موقـعنا على الفـرَق المسيـحيـة المنتـصرة وهي تدفع أمـامهـا حشـود البرابرة !! وتتـوج بوجودها المرتفعـات المطلة على الجزائر) ، وهو مع ذلك لا يسـعـه إلا أن يعتـرف بـ (أن القـوات الفـرنسية قـد أجـرمت بـارتكاب العـديد مـن الفظائع التي قـد تلائم المتوحـشين ، ولكن البرابرة الذين قـاوموا الفـرنسيين لم يصدر منهم أبداً مثل ما صدر من هؤلاء) (١) .

وفي مـراكش أجاب مـسيـو بيدو وزير خـارجيـة فرنسـا عندما زاره بعض البـرلمانيين الفرنسـيين ، وطلبوا منه وضع حـد للمـعركـة الدائرة هناك أجـابهم : (إنهـا معركة بين الهلال والصليب) (٢) .

وها هو نشيـد الجندي الإيطالي القادم لاسـتعـمار ليـبيـا يصرخ قـائلاً : (أماه أتمي صـلاتك . لا تبك ، بل اضـــحكي وتـأملي .. أنا ذاهب إلـى طرابلس فـرحـاً

(١) كـتـاب « الغـزو الفـرنسي للجزائر فـي وثيقـة أمريكـية معاصـرة » للدكتور منصور أحـمد بوخمسين ، حولية جـامعة الكويت الرسالة الخامسة والخمسون عام (١٩٨٨) ، (ص ٢٧ - ٣٠) .

(٢) كتـاب « دمروا الإسلام السابق » نقـلاً عن كتـاب « مأسـاة مراكش » لمؤلفه الفرنسي « روم رولاند » (ص ٣١٠) .

مسروراً ، سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ، سأحارب الديانة الإسلامية ، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن .. ، وإذا سألك أحد عن عدم حدادك فقولي : لقد مات وهو يحارب الإسلام) (١) .

ولقد بذلت إيطاليا في ليبيا - كما يقول الدكتور أحمد شلبي - : (جهداً كبيراً لتنصير الليبيين ، ومنعت طلاب الدراسات الإسلامية من السفر لمصر للالتحاق بالأزهر الشريف ، أو إلى تونس للالتحاق بجامع الزيتونة ، واتجهت إيطاليا إلى القضاء على الثقافة الإسلامية ، فأغلقت المدارس الإسلامية ولم تسمح بحلقات العلم بالمساجد) .

وقد كتب المراسلون الأجانب المرافقون للحملة الإيطالية عبارات استنكار لما شاهدوه ، وترك بعضهم الحملة وغادر ليبيا ، ومن هؤلاء « فرانز ماكولا » الذي كتب للجزار الإيطالي الجنرال « كانيفا » يقول وهو يودع ليبيا : (إنني أرفض البقاء مع جيش لا أعده

(١) كتاب « هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي » للدكتور عماد الدين خليل ، ط١ ، عام (١٩٨٦) ، (ص ٨٦) .

جيشاً، ولكن عصابة من قطاع الطرق والقتلة) . وكتب المراسل الألماني « فون چو تنبرج » يقول : (إنه لم يفعل جيش مع عدوه من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان في طرابلس ، فقد كان الچنرال « كانيفا » يستهين بكل قانون حربي ويأمر بقتل جميع الأسرى ، سواء قبض عليهم في الميدان أو في بيوتهم ، وحتى الرهبان الذين يتظاهرون بخدمة الإنسانية أسهموا في تعذيب المرضى . وفي ذلك يقول « هرمان رنول » المراسل النمسوي : وأحرق الطليان في (٢٦ تشرين الأول ١٩١١م) حياً بأكمله خلف بنك روما ، بعد أن ذبحوا أكثر سكانه ، وبينهم النساء والأطفال والشيوخ ، وشاهدت عربياً يحتضر فرجوت راهباً من خدمة الصليب الأحمر واسمه « بافيلاكو » أن يعطيه بعض الماء ، ولكنه حول نظره عني وقال : لا تزعج نفسك دعه يموت) . وراح الطليان يخربون المساجد ويتخذونها اسطبلات للدواب، كما راحوا يدوسون القرآن كلما وجدوه ويهتفون : هاتوا نبيكم البدوي يحميكم أو يحمي كتابكم) (١) .

---

(١) كتاب التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي ، الطبعة الثانية (٤/ ٢١٠ - ٢١٤ ، ٤١٤ - ٤١٧ ، ٤٠٣ - ٤٠٤) .

الدوافع الدينية ضد المسلمين في أوروبا الشرقية :

وماذا عن المسلمين الذين عاشوا في أوروبا واندمجوا فيها وصاروا أوروبيين ؟ هل نفعهم هذا الاندماج شيئاً في الحرب الدائرة على رءوسهم هناك في كل مكان ؟ ما هي دوافعها ؟ يحاول البعض أن يخفف الصورة ويجملها فيسميها حرباً عرقية لكي لا يصب افتضاحها في خانة الأصوليين ؟! يقول الصحفي عبد المنعم مراد في اجتماع الإعلاميين في (٣١/ ٦/ ١٩٩٢): (نحن نكتب هنا أن المسلمين في العالم مضطهدون . ويجب أن نقف إلى جوارهم ، وربما أن كثرة الكلام عن أن المسلمين مستهدفون يؤثر في بعض العناصر الإسلامية التي تريد أن تنتقم ، بينما هم ليسوا في حاجة إلى دفاع) (١) .

ويميل المعلقون دائماً في تفسير ما يحدث على أنه مجرد تصفية حسابات عرقية ، بدءاً من البوسنة والهرسك إلى ما يحدث اليوم في كوسوفو ، والحلقات التالية في سنجق ومقدونيا وألبانيا وبقية البلقان .

---

(١) الأهرام (١/ ٦/ ١٩٩٢) ، (ص ٣) .

ولكي نعرف أن ذلك التفسير محض تزييف وتجميل يصدر من أبناء الخندق العلماني المتوحد على مستوى العالم في مواجهة الإسلام .. تعالوا ننظر إلى القطنة الأولى من خسائر المسلمين في حرب البوسنة والهرسك التي دارت في هذا العقد من التاريخ .

يقول أحد كبار الصحفيين : إنه منذ قيام عملية الاستئصال في البوسنة والهرسك منذ شهرين إلى الآن (٢٩/ ٥/ ١٩٩٢) ، فإن كشف خسائر عملية الإبادة التي يتعرض لها المسلمون في يوجوسلافيا كما رواها محرم عمر ديتش رئيس الإدارة العليا الدينية للمسلمين في شبه جزيرة البلقان كالآتي :

١ - تدمير (٨٠ مسجداً) حتى الآن في جمهورية البوسنة والهرسك لطمس المعالم الإسلامية ، وتدمير الوجود الإسلامي في منطقة البلقان .

٢ - قصف الإدارة العليا للمسلمين في البلقان بالصواريخ ومقرها سراييفو العاصمة.

٣ - تدمير مسجد « البيك » في سراييفو ، وهو أكبر

مساجد البلقان ، وواحد من أقدم المساجد في أوروبا كلها .

٤ - تدمير جميع المساجد في منطقة « نوتشا » ، ورفع علم الصرب فوق مآذن المساجد عند احتلالها .

٥ - قصف مسجدي « علاء باشا » و« أمين بك» بالصواريخ ، ونهب كل الآثار والكتب الإسلامية والمصاحف التي ترجع إلى العصر العثماني ، وهي لا تقدر بثمن.

٦ - تدمير مسجد « كاراجوار » الشهير الذي أقيم في القرن الخامس عشر ، ويدخل ضمن المعالم التاريخية التي تشرف عليها هيئة اليونسكو .

٧ - هدم عشرات المزارات الإسلامية والتكايا والآثار الإسلامية العريقة في منطقة موستار .

٨ - تفجير مسجد أثري في مدينة « شابلينا » عن طريق شحنات متفجرة بالتحكم من البعد أثناء الصلاة ومصرع المسلمين داخلة وهم بين يدي الله .

٩ - منع الأذان والصلاة فيما تبقى من بيوت الله حتى صلاة الجمعة على وجه الخصوص .

١٠ - تشريد نحو مليون مسلم حتى الآن من مسلمي البوسنة والهرسك .

١١ - سقوط ما لا يقل عن ثلاثين قتيل يومياً

١٢ - تحويل سيرايفو إلى أكبر معسكر اعتقال في أوروبا كما تقول الصحف اليومية

يعلق الصحفي الكبير الأستاذ إبراهيم نافع على ذلك بقوله : « إن نظرة مدققة على هذه القائمة الأولى (!) للمناطق التي تم تدميرها تكشف عن أنها قد اختيرت بعناية ، فهي تمس المواريث الرمزية والتاريخية الإسلامية هناك ، فحرب الإبادة تريد تجريد الذاكرة الجماعية لشعب البوسنة والهرسك من رموز الهوية والإنجاز الحضاري الذي نشأ من الفكر والعقيدة . وفي نفس الوقت فإن الإسلام السائد هناك معتدل لا تشوبه نزعات التعصب وضيق الأفق التي تشهدها بلدان أخرى)[1] .

لا غرابة فيما حدث لولا تضليل النخبة العلمانية ، لا غرابة فيما حدث في البوسنة والهرسك بعد أن ظهر

---

(١) الأهرام (٢٩/ ٥/ ١٩٩٢) .

على رأس الدولة التي أعلنت هناك رجل متدين هو « علي عزت بيجوفتش » ، دعا في كتاب له أصدره عام (١٩٧٠) بعنوان « البيان الإسلامي » إلى خلق مجتمع إسلامي متكاتف لكل المسلمين من أندونيسيا إلى المغرب .

يقول بيجوفتش في أحد فصول الكتاب :

(بوسع الحركة الإسلامية تولِّي السلطة في الوقت الذي تصبح فيه الأكثرية العددية، وتصبح الأقوى عدة وعتاداً) ، وأخطر ما جاء في الكتاب قوله : (لن يكون هناك تعايش سلمي بين العقيدة الإسلامية والمؤسسات الدستورية غير الإسلامية).

يقول الصحفي المعروف محسن محمد : (مدينة سراييفو التي كانت يوماً جميلة أصبحت مدينة الخراب والجوع والموت والدمار ، ولا أحد يصدق أنه خلال ستة أسابيع فقط قضي على مسلمي البوسنة والهرسك ، وأمكن تمزيق سيراييفو وتحول شعب أوروبي مسلم إلى لاجئين) .

ويقول صحفي آخر وهو يشير إلى بطء التحركات

الظاهرية التي كانت تتحرك على مستوى العالم لإنقاذهم ، ولم تصل بعد إلى اتفاقية دايتون إلا بعد تدمير البنية الإسلامية : (حتى يجتمع هؤلاء يكون الوقت قد فات ، فإن القنابل الثقيلة تتساقط على سيرايفو ، وحرب الشوارع تمضي من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت ، والمناطق الإسلامية معزولة تماماً عن العالم ، وكلما وصلت سيارة تحمل الخبز والطعام لسكان المدينة تدفقوا عليها وتجمعوا حولها لتتلقاهم رصاصات القناصة وتبيدهم) . ثم يقول : (فهذه الحرب الدائرة بين الصرب من ناحية والكروات من ناحية أخرى .. كليهما ضد البوسنة والهرسك ليست حرباً للدفاع عن وحدة يوغوسلافيا أو عن إقامة جمهورية كبرى للصرب ، بل هي حرب دينية ، هدفها منع إقامة دولة إسلامية في أوروبا) ، ويقول : (هذه الحقيقة يجب أن تقال : لأن الأمم المتحدة ترى أن هذه مشكلة أوروبية وعلى أوروبا أن تحلها ، وأوروبا لا تريد الحل -في هذه الحال - ولا تسعى إلى وقف إطلاق النار لكنها تخشى الكابوس) أي : الكابوس الإسلامي [1] .

(١) جريدة الاتحاد بأبو ظبي (٢٤/ ٥/ ١٩٩٢) .

مع ذلك تذكر التقارير السياسية المنشورة في الصحف أن أهل البوسنة والهرسك وضعوا سياستهم على محاور كان من شأنها أن تتجنب الاستفزاز ضدهم ، فهم خلافاً للكروات كانوا يتمسكون بشكل هيكلي لوحدة الجمهوريات اليوغوسلافية الستة ، ويبذلون أقصى الجهد للاستجابة إلى شروط الأوروبيين التي جاءت إليهم موجة بعد موجة على أمل معاملتهم في النهاية على قدم المساواة مع الكاثوليك في كرواتيا وسلوفينيا ، ولقد فشلت هذه السياسة لأن الأهداف الصربية ضدهم ثابتة ، سواء وجدت استفزازاً أو لم تجد ، ولأن أوروبا من المستبعد - هكذا يقول التقرير الذي نشر في جريدة الخليج - أن تخرج من جلدها وتعامل المسلمين في البلقان كسواهم ، ولأن أوروبا ترسم الآن من الصحوة الإسلامية في أنحاء العالم شكل عدو مخيف ، كان يقف على أبواب فينا قبل قرون معدودة ، وعاد إلى الظهور بعد زوال شبح العدو الشيوعي) ، ويقول التقرير عن نتائج الحرب حتى تاريخه : (في ظل ذلك كله لم تنقطع التصريحات الأوروبية والأمريكية والدولية بأن الحل الوحيد هو التدخل العسكري ، ثم

تعقبه التصريحات بالتأكيد على أنه لن يتدخل أحد عسكرياً ، وكأنما يقال عبر ذلك كما يقول التقرير : « فلتفعل قوة الصربيين ما تشاء، ولن يضير بلجراد شيء في أن تمنع من الكلام في مجلس الأمن ، أو يمنع عنها التعاون الاقتصادي لبضعة أسابيع »(١) .

❊ ❊ ❊

الدوافع الدينية وراء الاستعمار الاستيطاني الصهيوني :

فإذا انتقلنا إلى الصهيونية في فلسطين التي يريدون تجميلها لنا - في سياق محو الذاكرة الجماعية للمسلمين- تارة بأنها حركة تحريرية ، وتارة بأنها مطلب شعب يستحق الاستقلال والأرض ، وتارة بأنها إشعاع حضاري أنشئ بين شعوب متخلفة ليأخذ بيدها نحو التقدم .. وفي كل الأحوال ألحوا على ذاكرة المسلم بأن ينسى أنها حركة دينية ، وأنها ترتبط أساساً بالمسيحية وبالحرب الصليبية ، فإننا نواجه هنا الحقيقة المخبأة بأن الفكر الديني الإنجيلي تحالف مع إسرائيل تحقيقاً لنبوءات يجدها الطرفان في الكتاب المقدس لديهم ، بفرعيه

---

(١) جريدة الخليج (٢٢/ ٥/ ١٩٩٢) .

القديم والجديد .

وقد كان لهذا الفكر أثر كبير في اندفاع رجال الدين والرؤساء الأمريكيين خصوصاً إلى دعم الدولة اليهودية بغير حدود ، ذلك أن المسيحيين عموماً يؤمنون بأسفار العهد القديم ، وينفرد البروتستانت والإنجيليون منهم بمزيد من التقديس لحرفية ما ورد بهذا الكتاب ، مما جعلهم يعطفون على قيام دولة إسرائيل ، ويعتبرون قيامها ذاك تنفيذاً لإرادة إلهية ، تقول دائرة المعارف البريطانية : (إن الاهتمام بعودة اليهود إلى فلسطين قد بقي حياً في الأذهان بفعل النصارى المتدينين ، وعلى الأخص في بريطانيا أكثر من فعل اليهود أنفسهم) (١) .

ويقول الزعيم اليهودي « وايزمان » : (إن من الأسباب الرئيسية لفوز اليهود بوعد بلفور هو شعور الشعب البريطاني المتأثر بالتوراة ، وتَغَنيه بالشوق الممض لأرض التوراة) . وقد أشار « وايزمان » إلى هذا الأمر

---

(١) انظر : كتاب « أمريكا وإسرائيل » للدكتور معروف الدواليبي بمقدمة الأستاذ محمد علي دولة ، نشر دار القلم بدمشق عام (١٩٩٠) ، (ص ١٧).

في حديثه عن بعض الشخصيات السياسية البريطانية التي كان لها دور بارز في تأييد اليهود مثل « بلفور » ، و« لويد چورج » ، و« تشرشل » ، فقد وصفهم بأنهم (كانوا من المتدينين المؤمنين بالتوراة، وقالوا عن العودة اليهودية إلى فلسطين أنها أمر واقعي ، ونحن الصهاينة نمثل لهم تراثاً يكنون له أعظم تقدير) .

لقد كان التأثر بالتوراة دافعاً أساسياً لبلفور صاحب الوعد المشئوم ليقدم وعده : تقول عنه مؤرخة حياته « بلانش دوجديل » : (لقد تأثر منذ نعومة أظفاره بدراسة التوراة في الكنائس ، وكان كلما اشتد عوده زاد إعجابه بالفلسفة اليهودية ! وكان دائماً يتحدث باهتمام عن ذلك ، وكانت فكرته الأساسية أن المسيحية وحضارتها مدينتان بالشيء الكثير لليهودية) ، ويقول عنه « وايزمان » : (أتظنون أن لورد بلفور كان يحابينا عندما منحنا الوعد بإنشاء وطن قومي لنا في فلسطين ؟ كلا لقد كان الرجل يستجيب لعاطفة دينية يتجاوب بها مع تعاليم العهد القديم) .

ويقول « لويد چورج » رئيس الوزارة البريطانية

التي منحت اليهود وعد بلفور : (نشأت في مدرسة تعلمت فيها تاريخ اليهود أكثر من تاريخ بلادي ، وبمقدوري أن أذكر أسماء جميع ملوك بني إسرائيل دون ملوك انجلترا !) . ولقد كان السياسي البريطاني المشهور « ونستون تشرشل » يعتبر نفسه صهيونياً أصيلاً ، ويصلي بحرارة لتحقيق أماني الصهيونية العظيمة ! !

ولقد سار الفيلسوف الفرنسي الملحد « چان بول سارتر » في مظاهرات باريس قبيل حرب (١٩٦٧) تحت لافتات كتب عليها « قاتلوا المسلمين » ، فالتهب الحماس الصليبي الغربي وتبرع الفرنسيون آنذاك بألف مليون فرنك خلال أربعة أيام فقط .

فإذا توجهنا إلى الشعب الأمريكي وجدنا أكثريته من المسيحيين البروتستانت ، وهؤلاء - خصوصاً الإنجيليين وأتباع مذهب العصمة - يؤمنون بنبوءات التوراة المزعومة ، ويستخدمون هذه النبوءات لتبرير وجود دولة اليهود في فلسطين ، أرض الشعب اليهودي قديماً ! ! ذلك الشعب الذي يصفونه بأنه شعب الله .

وتأييداً لاستيطان اليهود بفلسطين عقد رجال

الدين المسيحي الأمريكان مؤتمراً في عام (١٩٤٥)، وتقدم فيه خمسة آلاف قسيس بمذكرة للرئيس الأمريكي « ترومان » يطالبونه بفتح أبواب فلسطين لليهود بدون قيد أو شرط .

يقول القس الأمريكي الشهير « چيري فالويل » والصديق الشخصي للرئيس «ريجان » و« مناحم بيجن»: (لا أعتقد أن في وسع أمريكا أن تدير ظهرها لشعب إسرائيل وتبقى في عالم الوجود ! والرب يتعامل مع الشعب بقدر ما تتعامل هذه الشعوب مع اليهود) (١) .

وهو يقول عن انتصار إسرائيل عام (١٩٦٧) : (ما كان لإسرائيل أن تنتصر لولا تدخل الله) (٢) ، ثم ذهب هذا القس إلى إسرائيل ، حيث غرسوا له بعض الأشجار في أرض عرفت فيما بعد باسم « غابة چيري فالويل » .. والتقطت له صور هناك وهو راكع .. وطلب

---

(١) انظر : كتاب « أمريكا وإسرائيل » للدكتور معروف الدواليبي بمقدمة الأستاذ محمد علي دولة ، نشر دار القلم بدمشق عام (١٩٩٠) . (ص ١٧-٢٠).

(٢) جريدة الشرق الأوسط (١٤/ ١١/ ١٩٨٦) ، (ص ٦) .

منه « بيجن » أن يذهب إلى المستوطنات الجديدة وأن يعلن : (إن الله لم يكرم أمريكا إلا لأنها كريمة تجاه اليهود) ، وأضاف قائلاً : (إننا إذا فشلنا في حماية اليهود فلن نعود مهمين في نظر الله)[1] .

ويقول القس الأمريكي « مايك إيفانس » في ولاية تكساس : (إن تخلي إسرائيل عن الضفة الغربية وغيرها من الأرض المحتلة بعد حرب (١٩٦٧) سوف يجر إلى دمار إسرائيل ، ومن بعدها الولايات المتحدة ، إن الرب أمرني بوضوح بإنتاج هذا البرنامج التليفزيوني الخاص بدولة إسرائيل) ، وبرنامج القس المشار إليه عنوانه : (إسرائيل مفتاح أمريكا للبقاء) ، وقد أذيع عام (١٩٨٣) ، ولمدة ساعة بالتليفزيون .

ولقد دأب عدد من القساوسة من أمثال « چيم باركر » ، و« كينيث كوبلاند » ، و« روبرتس » ، و« سواغارت » ، وغيرهم على الإعلان عن قدسية إسرائيل استناداً إلى ما ورد في الكتاب المقدس عندهم .

---

(١) انظر : معروف الدواليبي في كتابه « أمريكا وإسرائيل » ، طبعة ١٩٩٠ ، (ص ٤٨) .

وذلك في الإذاعات الصوتية والمرئية .

ويقول القس « كرال مانتاير » في وصفه لحرب (١٩٦٧) : (على من يؤمن منا بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله أن يهب الآن لمساعدة اليهود ، فما أعطاهم الله يحق لهم أن يمتلكوه ، ولا يجوز أن يقايضوا على الأراضي التي كسبوها) (١) .

ولقد كانت خلفية ترومان المعمدانية وتربيته الدينية تركزان على عودة اليهود إلى صهيون ، وقصة حياته الشخصية حافلة بالاقتباسات والإشارات التوراتية، وتشير إلى ميله للإسهاب في ذكر التعاليم اليهودية المسيحية ، وعندما قدم « إيدي چاكوبسون ترومان » إلى عدد من الحاضرين واصفاً إياه بأنه « الرجل الذي ساعد على خلق إسرائيل » ، رد « ترومان » مستشهداً بفكرة الصهيونية الدائمة عن النفي والبعث فقال : (ماذا تعني بقولك : ساعد على خلق ؟ إنني قورش ، إنني قورش)، وقورش هو الذي أعاد اليهود في تاريخهم القديم من

(١) انظر : كتاب « من يجرؤ على الكلام » لبول فندلي ، نشر بيروت ، الطبعة الخامسة من (ص ٣٩٤ - ٤١٨) .

منفاهم في بابل إلى القدس .

ويقول « كارتر » : (لقد اعتبرت أن إقامة وطن لليهود هنا هو أمر من أمر الله ، وهذه المعتقدات الخلقية والدينية هي التي كانت أساس بقاء التزامي بسلامة إسرائيل ثابتاً لا يمكن أن يهتز) .

ويقول « ريجان » مخاطباً اليهود : (أعود إلى أنبيائكم الأقدمين في العهد القديم وعلامات اقتراب مجدون - وهي معركة فاصلة بين قوى الخير والشر في الفكر الصهيوني - فأجدني أتساءل : هل نحن الجيل الذي سيشهد تلك الواقعة .. إن هذه النبوءات تصف الأزمان التي نعيشها بالتأكيد) .

ويقول « بريجنسكي » مستشار « كارتر » للأمن القومي : (إنه على العرب أن يفهموا أن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية لا يمكن أن تكون متوازنة مع العلاقات الأمريكية العربية ، لأن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية علاقات حميمة مبنية على التراث التاريخي والروحي ، بينما العلاقات الأمريكية العربية لا تحتوي أياً من هذه العوامل) (١) .

(١) نقلاً من كتاب « أمريكا وإسرائيل » للدكتور معروف الدواليبي ومقدمته لمحمد علي دولة (ص ٢٠ - ٢٤) .

وهذا « كلينتون » الرئيس الأمريكي يقول لنتنياهو ، وهو في زيارته لغزة وإسرائيل: (إن القس الذي يتلقى اعترافاته الجنسية مع مونيكا قال له : إن الله سيغفر لك كل ذنوبك بما فيها علاقتك مع مونيكا ، ولكن الله لن يغفر لك أبداً إذا نسيت إسرائيل) (١) .

وعلى هذا النحو كان الشعب ورجال السياسة في أمريكا متأثرين بأفكارهم الدينية تجاه مناصرة اليهود ومعاداة المسلمين ، خلافاً لما يظنه البعض منا أن هؤلاء قد تخلصوا من دينهم وما عادوا يقيمون لغير مصالحهم المادية وزناً ، فعلاوة على ما تطور إليه الوضع هناك أخيراً من صحوة مسيحية عارمة ، يجب أن نتذكر أن ما هم فيه من تدين أشبه بمذهب المرجئة عند بعض الفرق الإسلامية : في الأخذ بمقولة أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة ، والمخلص عندهم دائماً مستعد لمحو الخطايا أولاً بأول ، ما توسط لذلك كاهن أو قسيس في صلاة أو اعتراف .

كذلك يتبين أن نظرية المصلحة التي تحكم السياسة

---

(١) مقال فوزية رشيد بجريدة الخليج (٢٣/ ١٢/ ١٩٩٨) .

والسياسيين لا غبار عليها إذا وسعنا مفهوم المصلحة ، بالنظر إليها وفق عقيدة صاحبها ، فهي التي تنشئ هذه المصلحة وتلونها وتحددها وتوجهها على المدى البعيد .

وحق لنا أن نقول بعد ذلك : إنه في سياق التزييف التاريخي الذي نخضع له يأتي التركيز على اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية ، وأنه هو السبب في جر الأمريكيين إلى معاداة العرب ، ولتنحرف جهودنا بعد ذلك إلى مشروع فاشل مقدماً بمحاولة إنشاء لوبي عربي !! إذ يبدو لنا أن الأمريكي هو لوبي نفسه وأن لوبيه يتكون في داخله منذ قرون ، بعقيدة توراتية مسيحية أصلاً !!

وقد نشرت صحيفة « هامير » المحلية في تل أبيب عينة موجزة للمجازر البشرية التي ترتكبها الصهيونية في المناطق العربية التي تستولي عليها ، وذكرت أن مجازر عام (١٩٤٨) كانت الأكثر قذارة في كل المجازر التي ارتكبتها إسرائيل ضد فلسطين ، وصرحت بأن كل معركة انتهت بمجزرة ، وكان ثمن احتلال كل قرية عربية تنفيذ أعمال قتل واغتصاب وجرائم حرب ، وفي هذا

يقول « أريبه يتسحاقي » الذي كان يعمل في أرشيف الجيش الإسرائيلي ، ثم صار يعمل محاضراً في جامعة «بارايلان»: إنه قرأ جميع الوثائق الموجودة في الجيش الإسرائيلي وجمع كل الوثائق المتعلقة بالمذابح ، ويؤكد أنه في كل قرية احتلتها إسرائيل تقريباً تم تنفيذ أعمال تعتبر جرائم حرب من القتل والاغتصاب والذبح ، ويقول : إنه على يقين من أن الأمور ستطفو على السطح في النهاية ، ويتساءل : كيف سنعيش معها (١) ، ونحن نطمئنه : إن هذا لن يحدث !!!

ويطمع قادة اليهود في استقطاب الوجه العربي العلماني إلى جانبهم للتخلص من الخطر الإسلامي المشترك ، ويبدو أن هذا هو ما يحدث جزئياً في الوقت الحالي من سلسلة التنازلات العربية ، وجمعيات الحوار الاستسلامية ، ومقدمة ذلك جاءت في الكلمة التي وجهها قائد يهودي كبير إلى قائد عربي وقع في أيدي اليهود عام (١٩٤٨) عن المقاتلين من المتطوعين المسلمين إذ يقول : (إنهم يطلبون الموت بشغف مجنون

---

(١) جريدة الأهرام (٢٥/ ٥/ ١٩٩٢) ، (ص ٥) .

ويندفعون إليه كأنهم الشياطين) ، ثم يفسر السبب في ذلك بأنه « الدين الإسلامي » ، ثم يقول : (إن هؤلاء لم يدرسوا الأمور دراسة واعية تفتح عيونهم على طريق الحياة . وهم خطر ليس علينا وحدنا ، بل خطر عليكم أنتم أيضاً ، إذ أن أوضاع بلادكم لن تستقر حتى يزول هؤلاء ، وتنقطع صرخاتهم المنادية بالجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، هذا المنطق الذي يخالف رقي القرن العشرين ، قرن العلم ، وهيئة الأمم المتحدة ، وحقوق الإنسان) [1] .

يجردوننا من الحافز الديني لكي يكون خالصاً لهم:
فلقد طبعت إسرائيل في حرب عام (١٩٦٧) بطاقات معايدات كتب عليها « هزيمة الهلال » بيعت بالملايين ، وعندما دخل الصهاينة القدس عام (١٩٦٧) أخذوا يهتفون مع موشى ديان وزير حربيتهم : هذا يوم بيوم خيبر ، يا لثارات خيبر ، وتابعوا هتافهم : حطوا المشمش ع التفاح دين محمد ولى وراح ، وهتفوا : محمد مات ،

---

(١) مجلة المسلمون ، العدد الأول من المجلد الثامن ، شهر تموز عام (١٩٦٣) .

خلف بنات ، الأمر الذي دعا الشاعر العربي محمد الفيتوري لينظم قصيدته مخاطباً نبينا محمداً ﷺ التي وضعنا جزءاً منها في بداية الكتاب .

❊ ❊ ❊

الدوافع الدينية وراء الحركة الاستعمارية للبلاد الإسلامية عموما :

ولننظر بعد ذلك في الاستعمار الأوروبي لبلادنا الإسلامية ، وقيامه على التوجه الديني ، والعداوة الخاصة للإسلام .

يقول الدكتور مفيد شهاب وزير التعليم العالي بمصر في ندوة رابطة الجامعات الإسلامية بعنوان: «الإعلام الدولي وقضايا العالم الإسلامي » المنعقدة برحاب جامعة الأزهر في (٣٠/ ١١/ ١٩٩٨) : (إن الهجوم على الإسلام والمسلمين ليس وليد اليوم أو الأمس القريب ، ولكنه يرجع إلى نشأة الإسلام نفسه ، ولم يتوقف الهجوم ولم ينته ، وكادت سهام الحاقدين تتكسر على صلابة الإيمان والتسامح الإسلامي) . وترجع أسباب ذلك كما يقول إلى عوامل متعددة

(بعضـها تاريخي يتمـثل في العداء التـقليدي الأوروبي للعالم الإسـلامي ، وبعضهـا اجتمـاعي يتمـثل في تباين أسلوب الحياة بـين المسلمين والغرب ، وبعضهـا سياسي يرجع إلى فترة الاسـتعمار حيث مـا زالت الدول الغربية تنظر إلى العالم الإسلامي باعتبـاره ثائراً ومتمرداً عليها ، فـالعالم الغـربي لا يريد للعـالم الإسلامي أن يسـتكمل نهضته) [1] .

يقـول « لورنس براون » : (كان قـادتنا يخوفـوننا بشعوب مخـتلفة ، لكننا بعد الاختبار لـم نجد مبرراً لمثل تلك المخـاوف ، كـانوا يخـوفـوننـا بالخطر اليـهـودي ، والخطر اليابانـي الأصفر ، والخطر البلشـفي ، ثم تبين لنا أن اليهود هم أصدقاؤنا ، والبلاشفة الشيوعيون حلفاؤنا، أما الـيابانيـون فإن هناك دولاً ديموقـراطية كـبيـرة تتكفل بمقاومتهم ، لكننا وجدنا أن الخطر الحـقيقي علينا موجود في الإسلام ، وفي قدرته على التوسع والإخضاع ، وفي حيويته المدهشة) [2] .

(١) جريدة الشعب في مصر (٣١/١١/١٩٩٨) .
(٢) « التبشير والاستعمار » للدكتور عمر فروخ والخالدي ، (ص ١٨٤) .

ويقول المستشرق الفرنسي « كيمون » في كتابه: «باثولوچيا الإسلام » : (إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، بل هو مرض مريع ، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الكسل والخمول ، ولا يوقظه من الخمول إلا ليدفعه إلى سفك الدماء ، والإدمان على معاقرة الخمور ، وارتكاب جميع القبائح ، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رءوس المسلمين ، فيأتون بمظاهر الصرع والذهول العقلي إلى ما لا نهاية ، ويعتادون على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهة لحم الخنزير !! ، والخمر الموسيقي !! ، إن الإسلام كله قائم على القسوة والفجور في اللذات ، وأعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر !!) (١) .

ويقول المبشر « تاكلي » : (يجب أن نستخدم القرآن ، وهو أمضى سلاح في الإسلام ضد الإسلام

(١) « الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر » للدكتور محمد حسين (١/ ٣٢١) .

نفسه ، حتى نقضي عليه تماماً ، يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديداً ، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً) (١) .

ومن قادة الغرب المعاصرين : يقول لورنس براون: (إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي) (٢) .

ويقول مستر « جلادستون » رئيس وزراء بريطانيا الأسبق : (ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق) (٣) .

ويقول « أنطوني ناتنج » في كتابه « العرب » : (منذ أن جمع محمد - ﷺ - أنصاره في مطلع القرن السابع الميلادي وبدأ أول خطوات الانتشار الإسلامي ، فإن على العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهنا عبر المتوسط).

---

(١) « التبشير والاستعمار » للدكتور عمر فروخ والدكتور الخالدي (ص ٤٠) ، (ط ٤) .

(٢) كتاب « التبشير والاستعمار » للدكتور عمر فروخ والدكتور الخالدي (ص ١٠٤) .

(٣) كتاب « الإسلام في مفترق الطرق » لمحمد أسد (ص ٣٩) .

ويقـول « أيوجين روستـو » رئيس قسم التـخطيط في وزارة الخارجيـة ومساعد وزير الخارجيـة الأمريكية ، ومستـشار الرئيس « چونسون » لشئـون الشرق الأوسط حـتى عـام (١٩٦٧) : (يجـب أن ندرك أن الخـلافـات القائـمة بيننا وبين الشعوب الـعربية ليست ـخلافات بين دول وشعوب ، بل هي خـلافات بين الحضارة المسيـحية والحضارة الإـسلامية ، لقد ـكان الصراع محـتدماً ما بين المسيـحية والإسلام من القـرون الوسطى ، وهو مستـمر حـتى هذه اللحظة بصور مـختلفة ، ومنذ قـرن ونصف خـضع الإســلام لسيطـرة الغـرب ، وخـضـع التـراث الإسلامي للتراث المسيحي)[1] .

ويقول « أشعيا بومـان » في مقال نشره في مجلة العالم الإسلامي التبشيـرية : (إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغـربي من الإسلام ، لهذا الخوف أسبـاب ، منها أن الإسـلام منذ ظهر في مكة لم يـضعف عددياً ، بل إن أتباعه يزدادون باستمرار ، من أسباب هذا الخوف أن هذا الدين من أركانه الجهاد)[2] .

---

(١) كتاب « دمروا الإسلام » (ص ٢٣) .
(٢) المصدر السابق ص ٣٧ .

ويقول الحاكم الفرنسي للجزائر بعد مرور مائة سنة على استعمارها : (إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن ، ويتكلمون العربية ، ولذا يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم)(١) .

ويقول مورو بيرجر في كتابه « العالم العربي المعاصر » : (إن الخوف من العرب، واهتمامنا بالأمة العربية ، ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب،بل بسبب الإسلام ، يجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب ، التي تؤدي إلى قوة الإسلام ، لأن قوة العرب تتصاحب دائماً مع قوة الإسلام وانتشاره ، إن الإسلام يفزعنا عندما نراه ينتشر في القارة الأفريقية) (٢) .

ويقول « هانوتو » وزير خارجية فرنسا : (رغم انتصارنا على أمة الإسلام وقهرها، فإن الخطر لا يزال

---

(١) كتاب « دمروا الإسلام » (ص ٣٠) .
(٢) مجلة روز اليوسف بتاريخ (٢٩/٦/١٩٦٣) .

موجوداً من انتفاض المقهورين المغلوبين الذين أتعبتهم النكبات التي أنزلناها بهم ، لأن همتهم لم تخمد بعد) (١) .

وبعد استقلال الجزائر ألقى أحد كبار المستشرقين محاضرة في مدريد بعنوان : لماذا كنا نحاول البقاء في الجزائر ؟ فقال : (إننا لم نكن نسخر نصف المليون جندي من أجل نبيذ الجزائر أو صحاريه أو زيتونها ، إننا كنا نعتبر أنفسنا سور أوروبا الذي يقف في وجه زحف إسلامي محتمل يقوم به الجزائريون وإخوانهم من المسلمين عبر المتوسط ، ليستعيدوا الأندلس التي فقدوها ، وليدخلوا معنا في قلب فرنسا بمعركة بواتييه جديدة ينتصرون فيها ، ويكتسحون أوروبا الواهنة ، ويكملون ما كانوا قد عزموا عليه أثناء حلم الأمويين بتحويل المتوسط إلى بحيرة إسلامية خالصة ، من أجل ذلك كنا نحارب في الجزائر) (٢) .

---

(١) كتاب « الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي » للدكتور محمد البهي (ص ١٩) .
(٢) كتاب « دمروا الإسلام » (ص ٤١) .

ويقول أحد المسئولين في وزارة الخارجية الفرنسية عام (١٩٥٢) : (ليست الشيوعية خطراً على أوروبا فيما يبدو لي ، إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً وعنيفاً هو الخطر الإسلامي ، فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي ، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص بهم ، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة ، فهم جديرون أن يقيموا قواعد عالم جديد ، دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية في الحضارة الغربية ، فإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في نطاقه الواسع انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري ، وانتشروا في الأرض يزيلون منها قواعد الحضارة الغربية ، ويقذفون برسالتها إلى متاحف التاريخ ، وقد حاولنا نحن الفرنسيين خلال حكمنا الطويل للجزائر أن نتغلب على شخصية الشعب المسلمة،فكان الإخفاق الكامل نتيجة جهودنا الضخمة ، إن العالم الإسلامي عملاق مقيد ، عملاق لم يكتشف نفسه حتى الآن اكتشافاً تاماً ، فهو حائر وهو قلق، وهو كاره لانحطاطه وتخلفه ، وراغب رغبة يخالطها الكسل

والفوضى في مستقبل أحسن وحرية أوفر ، فلنعط هذا العالم الإسلامي ما يشاء لاستهلاكه ، ولنقو في نفسه النزعة لعدم الإنتاج الصناعي ، فإذا عجزنا عن تحقيق هذا الهدف وتحرر العملاق من قيوده فقد بؤنا إذن بإخفاق خطير ، وأصبح خطر العالم العربي وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطراً داهماً ينتهي به الغرب ، وتنتهي معه وظيفته الحضارية كقائد للعالم) [1] .

ويقول « ريتشارد نيكسون » الرئيس الأسبق للولايات المتحدة : « للعمل داخل العالم الإسلامي فإن على صناع السياسة الأمريكية المناورة داخل وكر أفعى من سم النزاعات الأيديولوچية والصراعات الوطنية) ، ويقول : (لا توجد دولة - حتى الصين الشيوعية - تحظى بصورة سلبية في الضمير الأمريكي كما هو الحال بالنسبة للعالم الإسلامي) ، ولكنه يعود فيطمئن مواطنيه بسبب تفرق المسلمين ، فيقول : (وهذا السيناريو الكابوس لن يتحقق أبداً ، إن العالم الإسلامي كبير جداً

(١) « دمروا الإسلام » (ص ٣٩) .

ومترامي الأطراف ومتعاكس ومتناقض ليزحف نحو قرع طبل واحد) ، ويقول : (إن الدين الإسلامي يمثل خليطاً من الوحدة يمسك بسياسات هذه الدول مجتمعة، لكنه لا ينسجها في إطار كتلة متناغمة ، إن سياسات كل دولة في العالم الإسلامي ليست مرتبطة بالإسلام بقدر ما قد يكون الإسلام متفاعلاً مع ثقافتها الوطنية والتقليدية) .

ويقول : (إن علينا أن ننشر الفضيلة !! في العالم وفقاً لمعتقداتنا الدينية) (١) .

تقول « كارل أرمسترونج » التي كانت راهبة كاثوليكية لمدة سبع سنوات ، ثم تفرغت لدراسة الإسلام وألفت كتاباً عن حياة الرسول ﷺ : (تسود الغرب موجة من التفهم والرغبة في المعرفة نحو الأديان والفلسفات والحضارات الأخرى إلا ديناً واحداً يستثنى من هذه النوايا الطيبة ، ولا يزالون يحتفظون له بذكرى سلبية ، فالذين بدأوا يستلهمون البوذية ليست لديهم

---

(١) كتاب « انتهزوا الفرصة » لريتشارد نيكسون ، ترجمة حاتم غانم ، نشر شركة قايتباي بالإسكندرية ، ط أولى ، (ص ٢٣ ، ٤٥ - ٣٩ - ٤ ٤ ٤) .

رغبة للنظر بعطف للإسلام ، رغم أنه الأخ الثالث في دين إبراهيم ، ويحمل نفس لهجة تقاليدنا اليهودية - المسيحية ، فنحن في الغرب لنا تاريخ طويل من العداء للإسلام ، مثل عدائنا للسامية ، وبينما تغيرت النظرة للسامية منذ مذابح هتلر ، فإن الكراهية القديمة للإسلام ما زالت تنمو على جانبي الأطلسي حيث الناس لا يتورعون عن مهاجمة هذا الدين بالرغم من أنهم لا يعرفون منه إلا القليل) .

إنها كما يقول الأستاذ جلال كشك : (حملة إبادة للوجود الإسلامي في يوغوسلافيا تحقيقاً للنقاء العنصري بالقتل والحرق والطرد الجماعي ، لكي يستولوا على الأرض بدون سكان ، كما فعل الكاثوليك في أسبانيا والبرتغال قبل خمسمائة سنة ، ثم في كريت وصقلية وقبرص وجنوب أوروبا ، وكما فعل الصرب والأوروبيون في البلقان قبل مائة عام ، وكما فعلت وتفعل إسرائيل ، وكما فعلت بلغاريا في مسلميها عدة سنوات ، وكما يفعل الأرمن في قره باغ ، حيث يطبقون النموذج الإسرائيلي ويستدعون المهاجرين الأرمن من

أمريكا لإسكانهم في بيـوت المسلمين ، بعد أن تم إخلاء مائتي قرية مسلمة بالإبادة والطرد) [(١)] .

يقـول أحد المعلقين الصـحفـيين : (برزت على سطح الأحداث العالميـة ظاهرة ... ألا وهي ظاهرة القتل والإبادة والتشـريد وفقاً « للهـوية الدينية » وتحديداً وفـقاً للهـوية الدينيـة الإسـلامـية ، وهي ظاهـرة استـفـحلت واستـشرت مع عمليات الإبادة الجـماعية واسـعة النطاق للمـسلمين في بـورمـا ، ومع عـمليـات الإبادة المنظمـة للمسلمين في جمهـورية البوسنة والهرسك) ، ثم يقول عن رد ـفعل الـعواصم الـغربـية : (إنها لا تـتـحرك ولا تتدخل ، ويقتـصر مدى حركتهـا وتدخلها على الشجب والرفض والتنديد، وهي شعارات بالغة الغوغائية والقبح كلما كان التـصرف الواجب يستدعي الحركـة والتواجد المباشـر في مسرح الأحـداث لمنع تداعياتهـا المأساوية ... مـاذا ينتظر النظام العالـمي الجديد ؟ إنه ينتظر أن يفـرض الصـرب واقعـاً جـديداً على أرض جـمهـورية البـوسنة

---

(١) نقـلاً عن كتـاب « إنهم يذبحون المسلمين » للأستـاذ محـمد جـلال كشك ، نشر مكتبة التراث الإسلامي ، (ط ١٩٩٢) ، (ص ٥٤) .

والهرسك يغير من ملامح ديموجرافيا السكان ، حتى يفرض أمراً واقعاً يكون فيه مسلمو البوسنة والهرسك قد تحولوا إلى لاجئين في أرض غريبة عن أرض آبائهم وأجدادهم) (١) ، وهذا هو الذي حدث حتى جاء اتفاق دايتون في أرض محروثة.

ويقول الصحفي المرموق جهاد الخازن : (إذا نظر المرء شرقاً فسوف يرى جماعة مسلمة تقيم في بورما منذ القرن الثامن ، وتتعرض اليوم للقتل والضرب والاغتصاب والتشريد .. والعصابة العسكرية التي تسلمت الحكم في رانجون عام (١٩٨٨) تشن حربها على المسلمين ، فلا يسمع صوت في العالم ضدها .. ولقد قرأنا كيف فر ستون ألف مسلم بورمي بالقوارب عبر نهر « نان » وحاولوا اللجوء إلى بنجلاديش ، ويبرر العسكريون في بورما جرائمهم ضد المسلمين بحجة المحافظة على نقاء الجنس البورمي !! وهناك اليوم مليون بورمي مشردون .

وإذا نظر المرء غرباً فسوف يجد الأقليات المسلمة

(١) جريدة الاتحاد بأبي ظبي (٢٩/ ٥/ ١٩٩٢) .

في أوروبا وأمريكا تتعرض لحملات هدفها طردهم وترحيلهم .

وأينما جال المرء بنظره فسوف يجد مسلمين يتعرضون للضرب في كل مكان : في البوسنة والهرسك، في أفريقيا ، في آسيا الوسطى ... إلخ ، فهل هي صدفة أن المسلمين يتعرضون للضرب في كل بقعة من بقاع الأرض ؟ في نفس الوقت ؟ إن الأعذار التي يقدمها الذين يضربون المسلمين هي نفسها الأعذار والمبررات التي تقدمها إسرائيل لضرب الفلسطينيين وضرب الجنوب اللبناني ..) ، يقول الصحفي اللامع أحمد بهجت : (.. ليس صدفة)[1] .

وتعلق الدكتورة بنت الشاطئ - رحمها الله - على ما يجري للمسلمين على يد خصومهم الدينيين في الغرب ، فترجعها إلى أصولها باعتبارها تيارات ثقافية نتحمل نحن المسلمين تبعة القصور والتقصير فيها فتقول: (ما بعد هذه الجولة المتحضرة (!!) المسعورة متروك لنا نحن بغفلتنا عن الموقع الفكري الإسلامي

---

(١) الأهرام (٣٠/ ٥/ ١٩٩٢) .

الذي يعيث فيه دعاة تنوير ، موكلون بمهمة طمس معالم وجودنا الإسلامي بتشويه قيمه ومبادئه ، وأجهزة إعلام تتبارى في التحذير من الأصولية ، وتسقط بذلك وعي الشباب بزيف نسبة الإرهاب إلى دين يحظر الإكراه في الدين .. ومنابر صحفية وواجهات صوت وضوء مباحة لأدعياء العصرية أعداء الأصالة والأصولية ، يلوثون مناخنا الفكري الإسلامي ، بمقولاتهم الخاسرة ، ويبشرون فينا بتنوير عصري يحررنا من خدر الأفيون ، ويستهزئون بالتدين والمتدينين ، ويسخرون من قيم إسلامية يرونها من حفريات زمان غبر) (١) .

إنها عملية إبادة فشلت من قبل في الحروب الصليبية ، ولكنها نجحت نجاحاً مطلقاً في الأندلس ، ثم نجحت نجاحاً كاملاً في أوروبا ، وها هي تحرز نجاحات مرحلية ابتداء من سقوط الدولة العثمانية : في تركيا ، وفلسطين ، والعراق ، والشرق الأوسط ، ميدان المعركة الأخيرة من وجهة النظر الأصولية الصهيونية المسيحية ، في هرمجدون ، أو من وجهة النظر الحضارية التاريخية

---

(٢) جريدة الاتحاد (٤/ ٦/ ١٩٩٢) .

في تصفية حساب يقوم بها وارثو الدولة الرومانية التي أخرجها الإسلام من المنطقة .

وهي المعركة الدينية التي وجه القرآن أنظارنا إليها في قوله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ .

وسر انهزاماتنا في هذه المعركة أننا لم نكد نصدق القرآن فيما قال . فأصبح هناك من داخل العالم العربي من يساعد المتآمرين فيقدم مزيداً من المبررات لإبادة المسلمين، حتى يحملون الفكر الإسلامي المسئولية ، إذ يتهمونه بسوء العرض للإسلام ، وكأن سوء العرض هو السبب في هذه التيارات التي تسعى لإبادة الإسلام والمسلمين منذ الحرب الصليبية إلى اليوم ، وكأن الغرب يقاد دائماً من ذقنه لكل ما يعرض عليه دون مبادرة منه عرفناها له في البحث ، إن الأمر يرجع إلى سوء القصد، لا إلى سوء العرض ، سوء القصد من خصوم الإسلام ، لا سوء العرض من المسلمين - غالباً.

ولذا فإننا نؤكد أن ما يحدث من تواكب هذه الإبادة التي تجري للمسلمين في كل مكان ليس من قبيل

الصدفة ، ولكنه التحالف الصليبي الصهيوني العلماني العالمي .. ضد الإسلام . والحل في أيدينا ، ولكن بعد أن ننتصر لأنفسنا ، ومن ذلك أن ننتصر لتاريخنا وقد أدركنا أنهم يشوهون التاريخ الإسلامي ، وهو حل قادم حتماً .

أخرج البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه قال:(كان للنبي ﷺ ناقة يقال لها العضباء لا تسبق ، فجاء أعرابي على قعود فسبقها فشق ذلك على المسلمين، فقال: حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه) صدق رسول الله ﷺ . والله أعلم .

❊ ❊ ❊

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٩
الفصل الأول : المحو	١٩
فتح المسلمين لفرنسا	٢٢
حضارة المسلمين في بلغراد	٢٧
فلسطين عربية إسلامية	٣٧
بيت المقدس	٤٧
المسجد الأقصى	٥١
قداسة المسجد الأقصى	٥٧
الفصل الثانى : التشويه	٦٣
الصحابة	٦٣
الأمويون والعباسيون	٨٣
العثمانيون	٨٥
مقياس الوطنية	٩٢
مصر في الحملة الفرنسية	٩٤
كلمة عامة	٩٦
الفصل الثالث : تجميل العدو	١٠٣
الدوافع الدينية فى الحملات الصليبية	١٠٣
الدوافع الدينية وراء الحركة الإستعمارية في الحملة الفرنسية	١١٧
على مصر	١٢٤
الدوافع الدينية وراء الحركة الإستعمارية في العراق	١٢٨
الدوافع الدينية وراء الحركة الإستعمارية في الشام	١٢٩

الموضوع	الصفحة
الدوافع الدينية فى الحركة الإستعمارية فى المغرب..........	١٢٩
الدوافع الدينية ضد المسلمين في أوروبا الشرقية	١٣٣
الدوافع الدينية وراء الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ...	١٥٢
الدوافع الدينية وراء الحـركة الاستعـمارية للبلاد الإسلامـية عموماً	١٥٢
عملية إبادة	١٦٢
الفهرس	١٦٩